

### الفصل الثالث

#### فقهاء المالكية والحياة السياسية في بلاد السودان الغربي

١- فقهاء المالكية والعرش

أ- في دولة مالي .

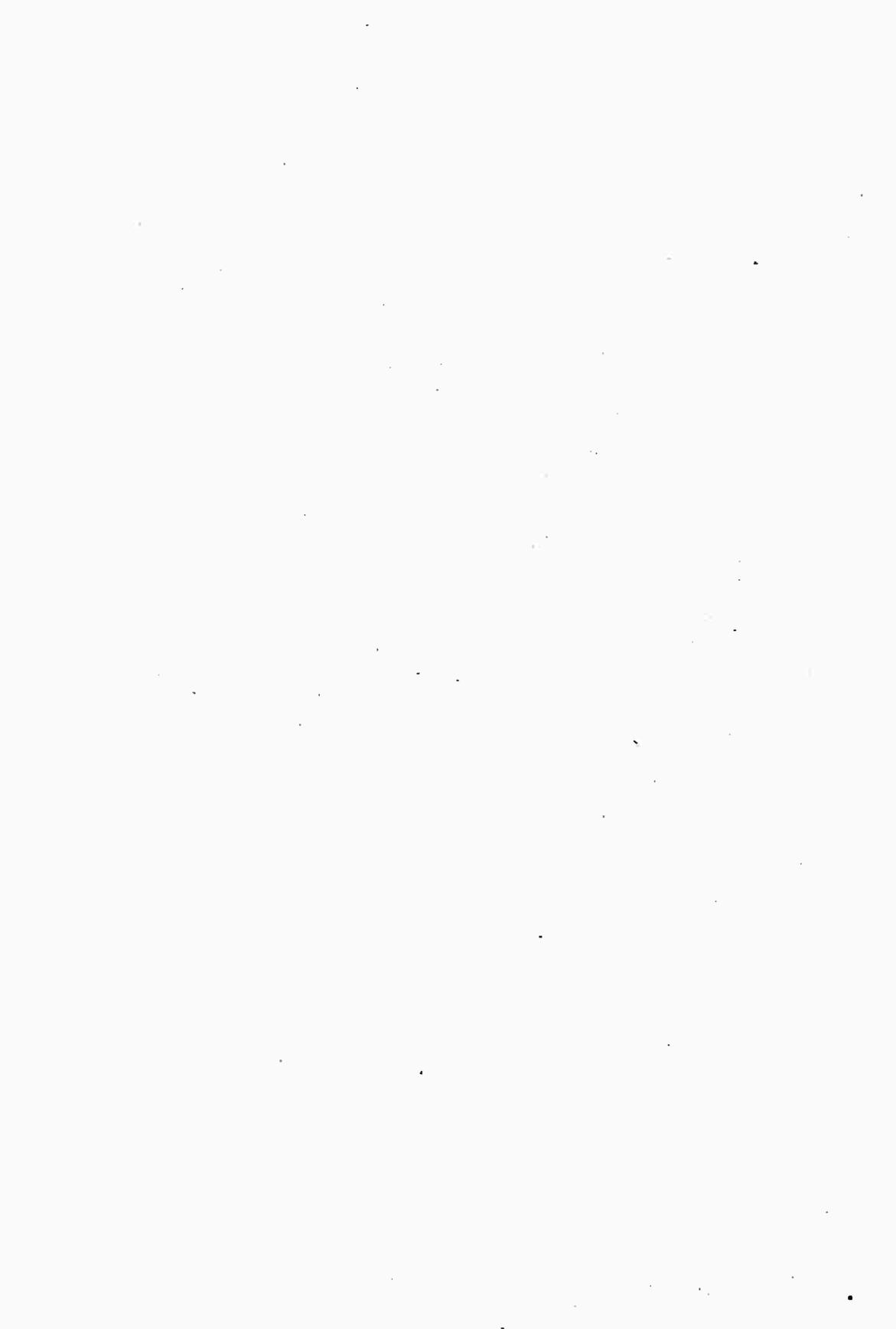
ب- في دولة صُنغِي .

٢- الخطط والولايات التي تولاها فقهاء مالكية السودان الغربي .

أ- الكتابة .

ب- القضاء والفتيا .

ج- الخطابة والإمامة .



نظراً للمكانة التي احتلها فقهاء المالكية في دولتي مالي وُصْنغى بالإضافة إلى الوضع الاجتماعي والنفوذ والتأثير الذي حظوا به بين العامة والخاصة ، فقد ارتبطوا بعلاقات مع السلطة الحاكمة كانت في أغلبها علاقات طيبة إلا أنها كانت تسوء بين الطرفين في أحياناً أخرى.

فقد لعب فقهاء المالكية في السودان الغربي أدواراً مختلفة في جميع مناحي الدولة الثقافية والاجتماعية والسياسية ، حيث شغل البعض منهم وظائف عليا وخططا دينية كبرى، من قضاء ، وإمامة ، وخطابة ، وكتابة ، جعلتهم يساهمون بشكل كبير ومباشر في الجهاز الإداري والسياسي للدولة .

فالارتباط بين الفقهاء والسلطة أصبح قاعدة سياسية تشكل من عناصر تتمحور حول علو صفة العالم ووظائفه ، فترفعه عن ماهو طبيعي مادي ، وتجعله أشد حرصا على القيام مقام الناصح المرشد الأمين ، لأن الخطأ مرتبط بها هو عادي، فالملك عطاء وليس اكتساباً، والسلطان مملوك قبل أن يكون مالكاً أو ملكاً<sup>(١)</sup>.

ولذلك ارتكز مجتمع السودان الغربي وخاصة في المرحلة المبكرة عن انتشار الإسلام على الفقهاء في العملية التعليمية ، بالإضافة إلى النظام السياسي والإداري ، كما كان الحال في دولة غانة التي اعتمدت عليهم في الجهاز الإداري للدولة ، ولكن هنا هذا التأثير للفقهاء مع نمو التأثير الإسلامي في دولة مالي منذ القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي ، وفي دولة وُصْنغى منذ بدايات القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي ، عندما سعى حكام هذه البلاد إلى التعريف بأنفسهم

(١) المغيلي : رسالة في أمور السلطنة ، مجله كلية الآداب ، فاس ، العدد الخامس ، ١٩٨٩ ، ص ٩٨ .

حكام مسلمين، لدرجة جعلتهم يستشيرون هؤلاء الفقهاء ، ومنذ ذلك الوقت تطورت العلاقة بين الفقهاء والحكام<sup>(١)</sup> .

وهكذا كانت العلاقة بين الفقهاء والسلطة الحاكمة قد بدأت في الظهور منذ قيام دولة غانة بعد أن قام حكامها باستقطاب بعض المسلمين للاستفادة من تجاربهم وممارستهم فأعان هؤلاء الفقهاء والتجار والكتاب والمستشارون المسلمون ملكها على تسيير أمور دولته<sup>(٢)</sup> وقد استمر هذا الأمر في دولتي مالي وصُنغِي .

### ١- فقهاء المالكية والعرش :

#### أ- فقهاء المالكية والعرش في دولة مالي :

كان بلاط دولة مالي الإسلامية مليئاً بالفقهاء والعلماء ، وكان أكثرهم من الشمال الإفريقي ، وقد أسندت إليهم معظم الخطط الدينية . وقد حظي هؤلاء العلماء الفقهاء بمنزلة كبيرة لدى حكام مالي حيث كانوا من المقربين إليهم ، فهاهو الفقيه أبو عباس الدكالي<sup>(٣)</sup> ، الذي كان معاصراً لمنسا موسى وكان يتولى خطة القضاء ، وقد تمتع هذا الفقيه بمقام واحترام كبيرين<sup>(٤)</sup> .

كما كان هناك الفقيه القاضي أنفار قم الذي كانت له علاقة خاصة مع منسا موسى والذي كان يوقره ويحترمه كثيرا ، حيث كان هو الوحيد الذي يصفحه<sup>(٥)</sup>

(١) TrimIngham J . s :Islam in west Africa ,op ,cit, p ١٠٠

(٢) البكري : المسالك ، ج٢ ، ص ٣٦٣ .

(٣) نسبة إلى مدينة دكالة وهي : " تعرف كذلك باسم "يمويمن" وتقع بين مدينة مراكش وبين البحر المحيط، وهي مدينة كبيرة وهي نهاية في العمارة ، أنظر : الحميري : مصدر سابق ، ص ٦١٩ .

(٤) ابن بطوطة : رحلته ، ص ٦٥٥ .

(٥) يعتبر هنا حدثاً عظيماً جداً ، حيث كانت العادة هناك في السلام على ملوك السودان يكون بواسطة رمي التراب ، أو الدقيق على رأسه للتذلل على الأرض والسجود له ، أنظر محمود كعت : مصدر سابق ، ص ٣٥ .

وبالإضافة إلى الفقهاء الذين كانوا موجودين في دوله مالي ، عمل منسا موسى أثناء رحله حجه الشهيرة<sup>(١)</sup> إلى جلب عناصر حجازية وقرشية حتى ينعم بحضور شرفاء يوازرون سلطته ويكملون مشروعاتها " ... فاجتمع عليه أربعة رجال من قريش قيل إنهم من موالى قريش وليسوا من أشرف قريش ، وأعطي لكل واحد منهم أربعة آلاف ... " فالحاجة كانت ملحة لأشخاص يتوسم فيهم الشرف ، حيث المنبع الأصلي للدين الإسلامي مما يضيف هالةً و قدسية أكبر لمملكته<sup>(٢)</sup>.

ويذكر لنا ابن بطوطة أن مجلس منسا سليمان كان يحضره الخطيب والقاضي ، وكان هؤلاء ضمن حاشيته المقررين<sup>(٣)</sup> . وما يدل على مكانة الفقهاء لدى حكام مالي ما حدث في بلاط منسا سليمان ، حيث قامت زوجته قسا بالتأمر عليه مع ابن عمه وبعد اكتشاف أمرهما عزم منسا سليمان على معاقبة زوجته التي هربت إلى دار الخطيب بعد عدم تمكنها من المسجد . فلم يلحقها أي أذى ، ورغم ما عرف عن منسا سليمان من تسامح ، لكنه كان لايسامح أحداً يرتكب أية جريمة ولذلك ساد الأمن في دولته<sup>(٤)</sup> .

#### ب- فقهاء المالكية والعرش في دولة صنغي :

كان الفقهاء أكثر حضوراً في عهد دولة صنغي بحيث كان هناك إطار من المعارضة ومن التحالف أيضاً بين الفقهاء والعرش وخاصة علاقة السلطة مع العلماء. فقد تباينت هذه العلاقة . ففي عهد بني علي (١٦٩-٨٩٨هـ

(١) المصدر السابق، ص ٣٣.

(٢) المصدر السابق، ص ٣٧.

(٣) ابن بطوطة : مصدر سابق ، ص ٦٧٧.

(٤) المصدر السابق : ص ٦٧٠ ، ٦٧١.

١٤٦٤-١٤٩٢م<sup>(١)</sup>) كانت هناك علاقة عدائية مع بعض العلماء، ولكن في عهد أسرة الأساكي تبدلت هذه العلاقة العدائية إلى علاقة مودة واحترام في معظم الأحوال وخاصة في الفترة الأولى من عهد آل أسكيا<sup>(٢)</sup>.

وفي عهد سني على بير وقع صدام بينه وبين بعض فقهاء المالكية، ومن مظاهر هذا الصدام قيام كثير من الفقهاء بشن حملة كلامية وفقهية ضده وصلت إلى حد التشكيك في إسلامه واعتبروه مسلماً بالاسم أو وثنياً متظاهراً بالإسلام<sup>(٣)</sup>.

وبسبب هذا الموقف الذي اتخذته هؤلاء الفقهاء حدث لهم تنكيل علي يد سني على وخاصة عندما أخضع مدينته تنبكت عام (٨٧٣هـ / ١٤٦٨م) بعد أن انتزعتها من حكامها الطوارق<sup>(٤)</sup> وجعلها العاصمة الثانية لدولته، حيث كانت تنبكت المدينة

(١) هو ابن السلطان سن سلمن دام، ورغم قبح سيرة سني على وظلمه وفجوره، فإنه كان المؤسس الحقيقي للإمبراطورية صنفى، ففي عهده توسعت دوله صنفى وتجاوزت شهرتها وأخبارها الأفاق، حيث كان عمارياً شجاعاً "وكان منصوراً، وما قابل أرضاً قصده، إلا خربها، وما كسر له جيش كان فيه، أنظر محمود كعت: مصدر سابق، ص ٤٣، السعدي: تاريخ السودان، ص ٣٦، البرتل: ص ١١٢، الشيخ الأمين محمد: العلاقات بين المغرب الأقصى والسودان الغربي في عهد السلطينين الإسلاميتين مالي وسنفي، رسالة ماجستير، كلية الآداب قسم تاريخ، جامعة القاهرة فرع الخرطوم، ١٩٧٦م، ص ٦٧.

(٢) محمود كعت: مصدر سابق، ص ٤٣.

(٣) المصدر سابق، ص ٤٣، ٤٤، ٤٥، ٤٦، ٤٧، السعدي: مصدر سابق، ص ٦٤، ٦٥، ٦٦، ٦٧، وكذلك: نقولا زيادة: المغرب والسودان في أيام المنصور الذهبي، بيروت، ١٩٦٧م، ص ٣.

. Mine Horace :op,cit ,p٨

Op.cit, p٢٤٨. Lansie

Levtzion,N: op,cit,p,٣٤٢.

(٤) الطوارق هم: "هم من مسوفة يتسبون إلى صنهاجة يرفعون نسبهم إلى حير، وهم على دين الإسلام، وأتباع السنة، للمزيد أنظر السعدي، ص ٣٥، ٣٦، أحمد مختار العبادي: تاريخ المغرب والاندلس، Lansine Kaba:op,cit, p بيروت، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، ١٩٧٩، ص ١٦، ٢٤٨. Levtzion,N:op,cit,p,٣٤٢.

الوحيدة التي شهدت معارضة لسياسته على المستويين العلمي والفقهي ، وعلى المستوى السكاني أيضا ، حيث جمعت هذه المدينة بين جنباتها الكثير من الفقهاء ورجال العلم ، والكثير من العائلات الارستقراطية الكبرى من ذوى الأصل الصنهاجي<sup>(١)</sup> أو الذين يدعون هذا النسب<sup>(٢)</sup> مثل أسرة أقيت وأسرة بغيغ وأسرة الحاج وأسرة أندغ محمد التي كانت تتقاسم مع هذه الأسر القضاء والخطابة و الإمامة والشرف والجاه<sup>(٣)</sup> هذا بالإضافة إلى الطوارق الذين حكموا هذه المدينة منذ نهاية دولة مالي بواسطة أسرة نض<sup>(٤)</sup> ، حيث سيطروا على مقاليد الأمور التي انعكست على مدينته تنبكت في النمو الاقتصادي والازدهار الثقافي ، كما كانوا يعينون من يشاءون من أفراد هذه الأسر العلمية .

ويرجع الصراع الذي كان قائماً إلى التباين بين مصالح الطرفين ، فسني على كان هم الأكبر ألا يتازعه أحد في السلطان<sup>(٥)</sup> ، ولا يكون هناك ولاء لشخص آخر

(١) يقول البكري عنهم : " ... وخلف بني لمتونه قبيلة من صنهاجة تسمى بني جداله ، وهم يجاورون البحر ليس بينهم وبينه أحد ... " وكما يضيف عن انتشارهم فيقول " ... المصاقبون لبلاد السودان بنو جداله ، هم آخر الإسلام خطة وأقرب بلاد السودان منهم صنغانة بين آخر بلادهم وبينها ستة أيام ، وصنغانة مدينتان على ضفتي النيل ... " البكري : المسالك والممالك ، ص ٣٥٩ ، وللمزيد أنظر ابن خلدون : تاريخه ، ص ١٨٨١ ، ١٨٨٢ ، ١٨٩٦ ، ١٨٩٧ .

(٢) تحدثت العديد من كتب المصادر عن بحث العديد من الأسر السودانية عن الأصول العربية أو البربرية للارتباط بالنسب الشريف ، أو عن سمو اجتماعي ، أنظر : La Famille : B, cuoq Aqit de Tomboutou, Revue des Belles Lettres Arabes, ١٩٧٨N. ٤١, premier Smestre, p٨٩.

(٣) Levtzion, N: Islam in West Africa, ٣٤٢. (٣)

(٤) كانت مدينة تنبكت تحت حكم الطوارق الذين ولوا عليها أميراً من صنهاجة شنقيط ، وكان تامينوكال أكيل أغ أملوليل أكملوليل ، ذلك الأمير الذي كان ينتمي إلى الملتهمين من مسوفة حاكماً لها ، ومن ذلك الوقت كان الطوارق حكام تنبكت وسلطينها حتى عام ١٤٦٩ م ، أنظر ابن الوزان الزياتي : وصف أفريقيا ، ص ٥٣٩ .

(٥) جميلة إمام التكيك : مملكة سنغاي الإسلامية في عهد الاسكيا محمد الكبير ، منشورات مركز جهاد

سواه ، حتى يتحقق حلمه الأكبر في تكوين وتأسيس مملكة شاسعة ، ولذلك اتجه للاستيلاء على مدينة تنبكت وخاصة بعد نجاحه في غزو جني عام (٨٨٢هـ / ١٤٧٧م)<sup>(١)</sup> ومن ثم اصطدم سني علي بفقهاء مدينة تنبكت بسبب نفوذهم القوي الذي كبل يده في أكثر من ظرف، فقد شكلت هذه الفئات حاجزاً قوياً أمام أهدافه ، وذلك عن طريق حصرها لقواته وسلطته بسبب قوتها الدينية والسياسية وقدرتها على التأثير في الرأي العام وفرض شروطها ورغباتها على الجهاز السلطوي كما سنرى فيما بعد .

كما أن سني علي قد أسس دولة كبيرة واسعة بمجهوده الحربي الكبير ولذلك كان لا يرضى لنفسه أن يصبح أسيراً كملوك مالي الذين شاهد صنيع العلماء بهم ، ومن ناحية أخرى خشي من طوارق مسوفة أن يهددوا نفوذه باسم الدين . ولهذا الأمر عامل سني العلماء والطوارق بقسوة ، فهرب ملك الطوارق حاملاً معه علماء مدينة تنبكت ، وقيل إنه حملهم على ألف جمل . وبالرغم من ذلك قام سني علي بقتل خلق كثير منهم محمود وأحمد أندغ محمد<sup>(٢)</sup> ، كما قام بإذلال أهلها بعد أن اعتبرهم أصدقاء حميمين للطوارق ومتعاطفين معهم<sup>(٣)</sup> .

الليبين للدراسات التاريخية ، سلسلة الدراسات التاريخية رقم ٢٦ ، ليبيا ، ١٩٩٨م ، ٤٥ .

(١) سينيكي مودي سيسوكو : الصنفي من القرن الثاني عشر إلى القرن السادس عشر ، "تاريخ أفريقيا العام" ، ج٤ ، اليونسكو ، ١٩٨٨م ، ص ٢٠٤ .

(٢) السعدي : مصدر سابق ، ص ٦٥ ، ٦٦ ، Clarke.B : west Africa and Islam , London ١٩٨٢, pp ٤٨٤٩

(٣) كان السلطان "عقيل" زعيم جماعات الطوارق صديقا للعديد من الأسر النبيلة ، وأستطاع بنفوذه أن يستميل حاكم مدينة تنبكت محمد أندا ، الذي سمح الحكم الذاتي للمحكومين في أن يطور علاقاته مع حاكم صنفي ، وعلى الرغم من أن حكومة هذه المدينة كانت تابعة للطوارق إلا أنها اعترفت بسيادة صنفي الدولة المجاورة التي أصبحت القوة العظمى للإقليم ، ثم ساءت العلاقة بينهم بعد موت محمد أندا (٨٧٢هـ / ١٤٦٧م) فتولى ابنه وخليفته عمر الذي تهاوى بقوته وأهان سني علي في أول خطاب له ، مما أغضب سني علي فأعلن الحرب على مدينة تنبكت ، فقام السلطان عقيل بعزل عمر بن محمد أندا ،

ولعل أسوأ ما نسب إليه أنه أمر بالقبض على ثلاثين بنتا من بنات العلماء الأبقار ليكنَ من جواريه ، منهن ثلاثة من أسرة آل أقيمت بزعم أن هذه الأسرة تعاون مع الطوارق ولما تأخرن عن التوجه إليه وهو في مرسى مدينة كابره على النيجر ، أمر بقتلهن جميعاً وعرف هذا المكان بعد هذه الحادثة "فناء قدر الأبقار"<sup>(١)</sup> و الباحثة لا تستطيع أن تجزم بحدوث هذا الحادث لان مصدر هذا الحدث كان معادياً لسني علي . كما كان حكم سني على صارماً تجاه رعيته ، فقد فرض العمل الإيجباري القائم على السخرة ، كما فرض التجنيد الإلزامي ليؤكد استعدادات جيشه للحرب ، وذكر عنه أنه أثناء نوبات من الغضب والشك كان غالباً ما يسجن الأسر النبيلة في مدينة تنبكت خلال الفترة من عام (١٨٧٤هـ/١٤٦٩م إلى عام ١٨٧٨هـ/١٤٧٣م) ، ومرة أخرى خلال السنوات الآتية (١٨٩٠-١٨٩٨هـ/١٤٨٥-١٤٩٢م)<sup>(٢)</sup> .

وعلي الجانب الآخر يجب أن نشير إلى أن سني على لم ينكل بكل الفقهاء بل نكل بعضهم فقط<sup>(٣)</sup> ، حيث عامل البعض الآخر معاملة حسنة وحافظ على وظائفهم

---

وانتشر بقواته من الطوارق من أجل السيطرة على الموقف ، وفي تلك الفترة قدم====الحاكم المعزول "عمر" خدماته لسني على وأحاطه بكافه المشاكل المحلية ، وبأخبار صحة السلطان العلييلة ، وهون له من شأنه ، وأنه ضعيف في كل شئ ، في قدرته وجسمه ، وأنه رجل نحيف قصير جدا ، وأرفق برسالته نعل سلطان الطوارق ، لكي يتأكد سني على من ضالاه جسمه ودعاه لكي يغزو تنبكت ، أنظر الفتاش : مصدر سابق ، ص ، ٤٤ ، ٤٥ .

Lansie kaba;op,citl, p٢٤٨ t.rimingham : Op,cit,p١٠٤..

(١) السعدي : مصدر سابق ، ص ٦٦ .

(٢) T.rimingham: op,cit,p١٠٠ .

(٣) levtzion.N .Islam in west African politics : accommodation and

tension between the ulama Nehemia Levtzion: Islam in west Africapop,cit,٣٢٩. and the political authorities ,cahiers etudes africaines

,٧١,xvlll "١٩٧٨ ٣٣٣-٣٤٥

وخططهم مثلما فعل مع الفقيه عبد الله البلبالي " وهو أول البيضان " المغاربة " الذين قصدوا بلاد السودان الغربي، حيث قام بالصلاة بالناس في المسجد الجامع بتبكت في أواخر دولة الطوارق وفي أوائل دولة سني علي ، وقد اخترمه سني علي كثيراً جداً وكان من عباد الله الصالحين ...<sup>(١)</sup> . كما نجد سني علي يعد رحيل فقهاء تبكت إلى ولاته يقلد القضاء للفقيه حبيب حفيد عبد الرحمن التميمي ، كما كان يحترم ابن عم الفقيه المأمون الذي رفض قول السوء في سني علي " فقال لا أقول على سني علي سوءاً لأنه أحسن إلى ولم يعمل سوءاً كما عمله في الناس ..."<sup>(٢)</sup> .

والجدير بالذكر أن سني علي لم يكرر حوادث إهانة الفقهاء بعد ذلك ، فوصل الفقهاء وكبار القوم بالهدايا والصلوات . وتحدثنا المصادر عن سبي من نساء الفولانيين من قبيلة سنفتير حيث بعث كثيراً من نسايتهم إلى " كبراء تبكت وبعض العلماء والصالحين بالمدينة ، وأمرهم أن يتخذوهن جواري وقد تزوج الإمام عبد الله البلبالي واحدة منهن وكان اسمها عائشة الفلانية<sup>(٣)</sup> ، ومع ذلك فقد بالغ سني علي في إكرامه لبعض الفقهاء وأقر بفضلهم وأهميتهم يدل على ذلك مقولته الشهيرة .. " لولا العلماء لا تحلوا الدنيا ولا تطيب ويفعل الإحسان في آخرين ويحترمهم"<sup>(٤)</sup> .

ومهما قيل عن تصرفات سني علي المتأرجحة بين العمل الطيب والشرير ، فإن ما ذكر عنه في كتب المصادر والمراجع والتي تستعرض مساوئه وأفعاله والتي وصفته بأقبح الأوصاف وأرذلها والتي تشكك في إسلامه يحتاج إلى إعادة نظر ، فهذه

(١) محمود كعت : مصدر سابق ، ص ١٧٨ ، ص ١٧٩ ، ١٨٠ ، السعدي : مصدر سابق ، ص ٥٧

(٢) المصدر السابق : ص ٦٦ .

(٣) المصدر السابق : ص ٦٧ .

(٤) المصدر السابق والصفحة

المصادر تعتمد على المؤرخين السودانيين المالكين المعادين لسني علي فهم طرف في النزاع من جهة ، ومن جهة أخرى فإن الكثير من تصرفاته الوثنية ترجع بسبب الانتماء إلى دين أمه وتربيته بين أخواله الوثنيين ، كما أنه تعلم الطقوس السحرية ومزاولتها ولذلك أشيع عنه انه كافر<sup>(١)</sup> .

لكننا نجد أيضا حديثاً عن تصرفات أخرى مطابقة للتعاليم الإسلامية، ومنها ما يستدل علي ذلك من اسمه ، كما أن بعض المؤرخين يشيرون إلى انه أتبع تعاليم الإسلام من خلال نطقه بالشهادتين<sup>(٢)</sup> ، وصومه لشهر رمضان ، وتقديمه فروض الزكاة والصدقات على شكل حيوانات وذبائح ، هذا بخلاف أشياء كثيرة

(١) نلاحظ نوعاً من التناقض والتضارب في تاريخ سني علي ، ونأتي إلى المصدر الثاني لمعلوماتنا حول سني علي ، والذي وصفه بالكفر وسوء التصرف ، ويأتي هذا في إطار الأسئلة التي وجهها الاسكيا محمد إلى الإمام المغيلي وكان رد الإمام المغيلي عليه في إطار طرح الاسكيا لتلك الأسئلة ، نجد سؤال الاسكيا محمد يدور حول ما ذكر عن سني علي من سوء تصرف وكفر ، بسبب انتفاء سني علي إلى دين أمه وتربيته الوثنية ، وفي هذا المجال أعتمد الكثير من المؤرخين على مقوله أسكيا محمد عبر سؤاله وجعلوه مصدراً أساسياً ، رغم أن أسئلته تتأرجح بين ذكر الحقيقة وتشويهها ، فيذكر أنه كان يصوم رمضان ويتصدق بكثير من الذبائح وغيرها عند المساجد ونحوها ، ومع ذلك يعيد الأصنام ، ثم يذكر " ومن صفته أيضا أنه ما رؤى في جامع ولا مسجد هو ولا أحد من دائرته ... وفي دائرته ألوف من الرجال والنساء لا يستطيع أحد منهم أن يصل صلاة ولا أن يصوم يوماً من رمضان خوفاً منه أن يعاقبه " ويظهر لنا مدى تناقض الأسئلة ، والتي نسبت معلوماتها إلى الإمام المغيلي الذي توخى الحرص عند الإجابة ، رغم ما عرف عنه من تصلب في الرأي وجهاد في أمور الدين وتطبيقه ، فكان رده داخل في إطار القاعدة الاستشارية والاستفتائية ، وما جواب المغيلي إلا تبعاً لما قدم له من معطيات يربطها بمقوله الشرع في هذه الأسئلة ، فيقول " فإن كان الأمر كما ذكرتم فهو كافر " كما كانت بقيه الأسئلة تهتم بكيفية محاوله استيلائه على ارث سني علي معتمداً على مسألة تكفيره وإثبات ذلك بفتوى من الإمام المغيلي ، أنظر محمد عبد الكريم المغيلي : أسئلة الاسكيا وأجوبة المغيلي ، تقديم وتحقيق ، عبد القادر زبدييه ، ص ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٣ ، ٤٢ ، ٤١ ، ٤٠ .

Lansie kaba: the pen , The swrd , and the crown, Islam and Revolution in songhay, p٢٥٦.

(٢) محمود كعت : مصدر سابق ، ص ٤٣ .

من الهبات إلى ذوى الحاجة والفقراء. ولهذا فإن الاعتماد على هذه المصادر غير كاف للحكم على مواقف وتصرفات سني على خاصة الدينية منها<sup>(١)</sup>.

ويرى البعض أن الصراع كان في أساسه صراعاً سياسياً اقتصادياً ، وليس صراعاً بين الوثنية والإسلام ، والذي استعمل كوسيلة لضرب سني على ، ولم يكن صراع ثقافات مع العلم أن الهيئة العلمية المتمثلة في فقهاء المالكية لم تكن تسعى إلى الزعامة السياسية والرئاسة<sup>(٢)</sup> ، بل كانت تسعى إلى تسيير السلطة القائمة من خلال إطار التوجيه الذي يؤثر تأثيراً مباشراً وغير مباشر في الجهاز الحاكم ، حيث يعتمدون على الدين والانتفاء الاجتماعي أو النسب الشريف . وبذلك فهم يحتلون مهمة الإرشاد والنصح والتخويف والترهيب ، وقد يكتفون بالمعارضة أو الرفض الذي يتطور في بعض الأحيان ليتخذ أشكالاً أكثر تطوراً من المعارضة الفقهية ويتخذ أشكالاً أخرى تسعى إلى تغيير النظام القائم بنظام جديد .

حدث هذا عندما مات سني على بعد حكم استمر قرابة ثمانية وعشرين عاماً في ١٥ المحرم عام (٨٩٨ هـ / ٧ نوفمبر ١٤٩٢ م)<sup>(٣)</sup> ، بعد أن أدى صراعه وسياسة

(١) وفي إطار الفتاوى التي طرحت على الإمام السيوطي ، كان هناك أسئلة حول سوء تصرف السودانين في القضاء وأمور الدين والدنيا ، وابتعادهم عن الإسلام ، ولو قارنا ذلك بما قيل عن سني على ، وإن ثبت الأمر ، فقد تكون تلك مجرد تصرفات عامة كانت موجودة ومتشرة بين المجتمع ولم تكن لصيقة بشخص معين ، أنظر السيوطي : الحاوي للفتاوى ج١ ، ص ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ٣٤٤ .

LansiekABa:op,cit,p٥٣١٥٤.

(٢) وخير دليل على ذلك اعتذار الفقهاء عن الخطط الدينية خوفاً من الظلم والمسؤولية ، ولكن هذا لا يشكل أي تناقض بين الهدف من تسيير السلطنة والقيام بوظائفها ، ولأن حضورهم على الساحة مرتبط بعلمهم ، لا بوضعهم في الهيئات السلطوية ، أنظر ،

Clssoko ,s .m .L , intelligentsia de Tombouctou,BlfAn, ١٩٦٩,t,xxx,p.٩٤٧,

Levtzion,N : Islam in west Africa, p ٣٣٩.

(٣) محمود كعت : مصدر سابق ، ص ٥١ ، ص ٥٥ ، السعدني : مصدر سابق ، ص ٦٤ ، ص ٧٠ ، ص ٧١

القمع التي اتبعها مع بعض فقهاء مدينه تنبكت إلى تحالفهم مع القائد محمد تورى الذي سلك سياسة إسلامية واضحة أمدته بتعاون أكبر مع الفقهاء<sup>(١)</sup>. وكان عرشُ صنغى قد أرتقاه في عام (١٤٩٢ هـ / ١٤٩٢ م) ابن سني على المدعو أبو بكر وكنيته (سني بارو) في وسط من المعارضة ، خاصة من محمد تورى المدعو (بمنساكورا والباراكوى) قائد المنطقة العسكرية حول بحيرة ديبو مما أدى إلى حدوث انقسام في الجيش الملكي وخروج محمد تورى علي سني بارو<sup>(٢)</sup> وأتباعه الشروط الأساسية لإعلان الجهاد في سبيل الله<sup>(٣)</sup> ، فأرسل الفقيه العالم محمد تل الشريف إلى بارو يدعوه إلى الإسلام وهو في بلده انفع ، فأبى وامتنع فأغلظ الكلام لذلك الفقيه وأرتكب معه امرأ عظيماً حتى هم بقتله فصدده الله عن ذلك ، ورجع إلى القائد محمد وأبلغه الخبر من رفض سني بارو وما فعله به . ثم أرسل محمد تورى الفقيه صالح جور إلى سني بارو مرة أخرى فأتاه وأبلغه رسالة القائد محمد فما ازداد إلا عتواً وامتناعاً وتجبراً وأتى بأشد من فعلته الأولى ، حيث أشار عليه وزراؤه بقتل هذا العالم حتى تنقطع رسله ولكن منعه الله وقال له أذهب لمرسلك فإن رجع إلي بعد رسول منه قدمه في عنقه . وذهب إلى القائد محمد تورى وأخبره ما حدث ومدى رفضه الدخول في الإسلام ، هنا جمع محمد تورى أهل مشورته من الفقهاء والأكابر وشاورهم في أمره فأشاروا عليه بإرسال رسول ثالث يداريه ويلين له في الكلام لعل الله يهديه إلى الإسلام فأرسل الفقيه القاضي محمود كعت فامتنع وأزداد إصراره وأمر بضرب طبول الحرب وعاد وبلغ القائد محمد تورى بها حدث واستعد القائد محمد تورى للحرب ويأبى الجميع<sup>(٤)</sup> .

(١) levtzion.N:op,cit,p٣٣٩ .

(٢) Lansie .op,cit,p٢٤٢.

(٣) محمود كعت : مصدر سابق ، ص ٤٤ ، ص ٤٥ ، ص ٤٦ ،

Louis Brenner: Histories of Religion in Africa , Journal of Religion In Africa, vol.٣٠, Fasc.٢May, ٢٠٠٠. p١٤٥.

(٤) محمود كعت : مصدر سابق ، ص ٤٦ .

وهكذا وبعد رفض سني بارو القسم بالولاء للدين الإسلامي والاعتراف به دينا رسميا للدولة، التقى الطرفان محمد توري وجيشه بجيش الموالين لسني بارو في معركة "أنافو" بالقرب من جاو عام (١٤٩٣هـ / ١٤٩٣م) حيث فر على أثرها سني بارو إلى دندي في الجنوب، كما ذكر ذلك أحد المؤرخين بقوله "إن الله حرر المسلمين من الكرب والأسى ، عدا الملك الجديد فإنه وضع حدا للمعاناة التي كانوا يتحملونها"<sup>(١)</sup> ومع هذا النصر بدأت حقبة جديدة في تاريخ دوله صُنغى حيث انتهى حكم أسرة سني الذي استمر زهاء تسعة قرون<sup>(٢)</sup> وقامت أسرة جديدة هي أسرة الاساكي<sup>(٣)</sup> التي كان أول ملوكها الأسكيا محمد توري

(١) كرم الصاوي باز: الصراع بين العرش والعلماء في سنغاي، في الفترة من "١٤٦٩-١٤٩٩هـ / ١٤٦٤-١٤٩٣م" مجله الدراسات الإفريقية-العدد ٢٢، ٢٠٠٠م، ص ٧٨.

Lansie kABa:op,cit,p ٢٥٣ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية، مادة سنغاي، مجلد ١٢، ص ٢٦٥، أنظر في الملاحق، أسرة سني على .  
 (٣) اتخذت الأسرة الحاكمة الجديدة لقب الاساكي، واستمرت تحكم حتى نهاية صنغى على أيدي المراكشيين عام (١٤٩٩هـ / ١٥٩١م أي بعد نحو قرن، حكم من الأسرة نحو ٢٢ سلطانا مستقلين : ١٣ منهم مستقلين، ٩ كانوا من صنائع المراكشيين باشاوات تنبكت، أنظر في الملاحق، أسماء أسرة الاساكي، وترجع تسميه هذه الأسرة بلقب الاساكي إلى أن بنات سني على، عندما علمن بخبر ولاية محمد توري، صحن: "أسكيا" ومعناه في كلامهم، كما يقول السعدي: "لا يكون إياه" وفسره بعض كتاب الغرب بمعنى المفتصب، فلما سمعه محمد توري، أمر ألا يلقب إلا به، فقالوا أسكيا محمد، أنظر السعدي: تاريخ السودان، ص ٧٢===

Samba Gadjigo: Scribe, Griot, and Novelist: Narrative Interpreters of the Empire by Thomas A. Hale , Research in African == =Songhay .

Literatures, Vol. ٢٢, No. ٤ (Winter, ١٩٩١) Indiana University Press,p.

٢١١,

Scribe, Griot, and Novelist: Narrative Interpreters of the : Ronald Niezen Songhay Empire by Thomas A. Hale, Journal of Religion in Africa, Vol. ٢٢, Fasc. ٢ (May, ١٩٩٢), BRILL pp. ١٨٤.

وقد أصبح لفقهاء المالكية في عهد هؤلاء الأساكي نفوذ كبير حيث كانت علاقاتهم قوية بالسلطة خاصة في عهد هؤلاء الأساكي الأقوياء ، فكانت لهم مواقف تبرهن على توجيههم للسلطة، وتبرهن كذلك على تحديهم لسلطة الحكام وإرادتهم ، فنجد أن الحكام خضعوا لهم واستجابوا من أجل دعم مشروعهم السياسي والديني المتمثل في وضع أسكيا محمد قواعد هذا المشروع ، فسعى للتقرب إلى الفقهاء وصاحبهم ، وقلدهم جميع الأمور وأعلى من مقامهم ورفع قدرهم وأشهر أسكيا محمد بأنه كان يقدر العلم وأهله فإذا دخلوا عليه أجلسهم على سريره وقربهم ، وكان لا يقف لأحد إلا للعلماء والحجاج ولا يأكل معه إلا العلماء والشرفاء وأولادهم<sup>(١)</sup> لأن هؤلاء الفقهاء هم وحدهم الذين يستطيعون التأثير على المسلمين في أنحاء دولته وهو الأمر الذي يحتاجه أسكيا محمد<sup>(٢)</sup>.

وارتفعت مكانة فقهاء المالكية في عهد أسكيا محمد وخاصة فقهاء تنبكت<sup>(٣)</sup> فمن تقديره لهم أنه عندما كان يصل إلى هذه المدينة كان أول دار يدخله دار الفقيه القاضي الذي يكون في انتظاره، ويصنع لهم القاضي شيئاً من الأكل والشرب لأنهم يريدون التبرك به ، ويأكلون ويشربون بعد دعاء كثير على العادة . ثم يتوجه إلى المسجد الجامع بهذه المدينة وهناك يتلقاه علماء البلد الأجلاء ، وأكابر الأئمة وجميعهم يدخلون المسجد قبل قدومه وينظرونه ويشيعه القاضي وشهوده فيدخل على الفقهاء في الجامع الكبير<sup>(٤)</sup> .

(١) الحاج مرجيا : فتح الحنان المتان بأخبار السودان ، معهد البحوث والعلوم الإنسانية ، نيامي النيجر ، رقم ١٠٨ ، ص ٢٣ ب .

(٢) أحمد باير الأرواني : جواهر الحسان في أخبار ملوك السودان مخطوطة ، معهد البحوث والعلوم الإنسانية نيامي النيجر ، مخطوطة رقم ١٠٦ ، ص ١٣ ب ، Lansie kABA: op,cit, p ٢٥٦ .

(٣) Moreou , R : Africains Musulmans , inades edition prence (٣)

Africaine, ١٩٨٢, p ١١٨ و ١١٩ .

(٤) محمود كمت : مصدر سابق ، ص ١١٠ ، ص ١١١ .

وتتلخص سياسة الأسكيا مع العلماء والقضاة في الإحسان إليهم بكثرة العطاء ، وجعل هذه السياسة قاعدة لمن أتوا بعده فعليهم أن يحترمواهم ويحسبوا إليهم والى ذويهم حيث اقتضت المصلحة أن يكون هناك تحالف بين الطرفين<sup>(١)</sup> .

ومن الأدلة علي ذلك أنه عندما وهب الأسكيا محمد للفقير محمود جارية وأمره أن يتخذها سرية ففعل ، ثم أرسل أسكيا محمد ألف مثقال للفقير محمود وقال له : " إن ولدت سريتك ذكرا فسمه باسمي وأعطاه ألف مثقال " وبالفعل أنجبت هذه السرية للفقير محمود ابنة الذي تولى القضاء فيها بعد<sup>(٢)</sup> .

ويتحدث محمود كعت في تاريخ الفتاش عما كان للفقير صالح جور عند الأسكيا محمد من الإكرام والعطاء<sup>(٣)</sup> . ومن كثرة عطايا الأسكيا محمد للفقهاء وأحفادهم ما حدث مع حفدة الشيخ مور هوكار عام (٩١٣ هـ / ١٥٠٧ م) . بعد أن غزا ونزل في قرية كبر و تلقاه هنالك ثلاثة رجال من حفدة الشيخ مور هوكار وهم مور الصادق ، ومور جيب ومور محمد الذين أخذهم سني على في زمنه واشتكوا إلى أسكيا محمد البؤس والشدة ، فأمر بالكثير من العطايا فدعوا له وشكروه وطلبوا منه أن يكتب لهم كتاب الحرمة حتى لا يتعرض لهم أحد بظلم ولا يتعدي عليهم أحد فرضي وأجاب<sup>(٤)</sup> .

Hunwik,J :secular power and Religious Authority in Muslim society: the :  
case of songhay , the Journal of African History ,vol.٣٧, No.٢,p١٧٧.

(١) محمود كعت : ص ٧٢ ، ٧٣ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٨٢ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٢ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٧٢ ، ص ٧٣ ، ص ٧٤ ، ص ٧٥ ، أنظر في الملاحق نص كتاب أسكيا الحاج محمد لحماية أبناء العالم محمد هوكار عام (٩١٣ هـ / ١٥٠٧ م) ومنحهم امتيازاته وإعفاءات من الضرائب والالتزامات المقررة بحكم العادة ، أنظر

ولم تقتصر علاقة الأساكي بفقهاء المالكية علي عطف ورعاية الأساكي لهم بل تطورت هذه العلاقة من خلال قيام هؤلاء الفقهاء بدور التوجيه والنصح والإرشاد لهؤلاء الأساكي، يتضح هذا في أجوبة المغيلي عن أسئلة الأسكيا محمد إذ يقول له ناصحاً وموجهاً: " ... إنما أنت مملوك لا تملك شيئاً ، وقد رفعت مولاك علي كثير من عباده لتصلح لهم دينهم ودنياهم لا لتكون سيدهم ومولاهم ... " (١) . ويتضح أن غرض الإمام المغيلي من رده ذلك هو إثارة التخويف والترهيب من تسلط الحكام علي الرعية.

وهناك واقعة أخرى تبرهن علي دور الفقهاء وتحديدهم للسلطة الحاكمة ، ودورهم في النصح والإرشاد ، ومن هذا ما حدث بين الأسكيا محمد والفقبة القاضي محمود بن عمر قاضي تنبكت المتوفى عام (٩٥٥هـ / ١٥٤٨م) فقد رفض القاضي تنفيذ أوامر أسكيا وقضاء بعض حوائجه ، وعاتبه أسكيا الحاج محمد علي ذلك فأجابه القاضي : " هل نسيت أم تناسيت يوم جتني في دارى وأخذت برجلي وثيابي فقلت : " جئت أدخل في حرمتك وأستودعك نفسي أن تحول بيني وبين جهنم فا نصرتني وأمسك بيدي حتى لا أقع في جهنم وأنا وديعتك " فهذا سبب طردني رسلك ورد أمرك ، فقال الاسكيا نسيت ذلك والله ولكن ذكرته الآن ، فأنا أستغفر الله وأتوب إليه (٢) .

كما كان الأسكيا محمد لا يقدم علي أمر إلا بعد مشورة هؤلاء الفقهاء وأخذ رأيهم في مسائل السلم والحرب ، كما كانوا هم رسله في معظم الأحوال ، ويتضح

(١) المغيلي : أسئلة الاسكيا وأجوبه المغيلي ، ص ٢٣ .

(٢) محمود كمت : مصدر سابق ، ص ٦١ ،

song hay :A Reconsideratin f Autnmy,the Journal of African History ,vol.٣١,No.١ (١٩٩٠),p ١٥. Nehemia Levtzioncit,٠p,٣٤١.

Michaal A .Games :Timbuktu under Imperia song hay :A Reconsideratin f Autnmy,the Journal of African History ,vol.٣١,No.١ (١٩٩٠),p ١٥ .

ذلك بعد عودته من رحلة حجه الشهيرة عام (٩٠١هـ / ١٤٩٥م) ، حيث أراد أن يغزو دولة موش فأخذ مشورة الفقيه مور صالح جور الذي أفتى له بأن يجعلها جهادا في سبيل الله فلم يخالفه في ذلك وبين له جميع أحكام الجهاد ، فطلب الاسكيا من الفقيه مور صالح أن يكون رسولا بينه وبين سلطان موش (١) فوافق أسكيا وأرسل هذا الفقيه إلي سلطان موش ، وبعد أن وصل وبلغه رسالة اسكيا طالباً منه الدخول في الإسلام رفض هذا السلطان وقال للفقيه ما بيننا وبينكم إلا الحرب . عاد الفقيه وأخبر الأسكيا بما حدث وقال له الآن ما عليك يا أسكيا الحاج محمد إلا قاتلهم ، وبالفعل قاتلهم وخرب ديارهم (٢)

وتكرر الأمر في الأخذ بمشورة الفقهاء عندما طلب الإمام المغيلي من الأسكيا محمد الكبير القبض على أفراد الجالية اليهودية التواتية في صنغى لتورطهم في مقتل ابنه أثناء غيابه في رحلته إلى بلاد السودان . وجاءت هذه الجريمة تحريضا من يهود توات الذين أرادوا الانتقام من المغيلي بسبب تحامله عليهم ، وتحريضه على هدم بيعهم . وكاد الأسكيا أن يلبي طلب الإمام المغيلي لولا استشارته للقاضي محمود بن عمر (٨٦٨-٩٥٥هـ / ١٤٦٣-١٥٤٨م) الذي تدخل واحتج على ذلك ، وأمر

(١) موش هي : " دولة ظهرت في منعطف نهر النيجر ، وكانت ذات تنظيم سياسي وعسكري ، وأهلها من المحاربين الذين هاجموا مدينة تنبكت زمن منسا موسى حاكم دولة مالي ، كما دخلوا في صراع عسكري مع سني علي في زمن دولة صنغى ، واكتمل الصراع في عهد الاسكيا محمد الكبير الذي شن عليهم الحرب باسم الدين وأنتصر عليهم . أنظر : ميشيل أيزارد : شعوب وممالك منعطف النيجر حوض الفولتا ، تاريخ إفريقيا العام ، اليونسكو ، ١٩٨٨م ، المجلد الرابع ، ص ٢٢٣ ، ٢٢٥ .

الأسكيا محمد بإطلاق سراحهم ، مما كان سبباً في غضب الإمام المغيلي الذي قتل راجعاً إلى ثوات التي ظل بها حتى وفاته<sup>(١)</sup> .

وهناك أحداث تظهر مكانة هؤلاء الفقهاء عند الأسكيا محمد ، منها أثناء رحلة حج الاسكيا محمد الكبير (٩٠٢هـ / ١٤٩٥م) وقفت الرحلة للراحة فقام الأسكيا محمد الكبير يقسم التمر بين أهل الرفقة كعادته ، فأعطى جميع الناس ونسى الفقيه محمد تل الذي حزن وحزن معه أهل منزله . وتحديث بعض أهل الرفقة بأن هذا أمر عن عمد ومنهم من اغتاب الأسكيا محمد ، وحين علم الأسكيا محمد بما حدث منه تجاه هذا الفقيه أنكب على يديه وقدميه يقبلهما ويعتذر له بالنسيان<sup>(٢)</sup> .

كما كان لبعض كبار فقهاء المالكية دور في الحفاظ علي دولة صُنغي من الاضطرابات والفتن الداخلية خاصة في الفترة التي أعقبت عزل أسكيا محمد واستيلاء ابنه موسي علي الحكم في عام (٩٣٥هـ / ١٥٢٨م) ، فقد منعوا هذا الأسكيا من التكوين بإخوانه ومعارضيه منعاً للفتن الداخلية . ومن ذلك جهود الفقيه محمود بن عمر المتوفى عام (٩٥٥هـ / ١٥٤٧م) للصلح بين الأسكيا موسى بن الأسكيا محمد الكبير وبين إخوته بعد أن قام بخلع أبيه من الحكم ، فطلب منه الفقيه القاضي محمود العفو عن إخوته وأن يتجنب الفتنة بينه وبينهم لما فيه من قطع الرحم والفساد في الأرض<sup>(٣)</sup> . وقد دخل بيت القاضي محمود (بنك فرم بل) ابن الأسكيا محمد وأستحرم به فبعث الأسكيا موسى يطلب شفاعته ، فقال : " كل من دخل دار

(١) المصدر السابق ، ص ٥٧٧ .

Trimingham J.s :Islam in west Africa, p٣٤٤ .

Abd-Al-Aziz Abd-Allah Batran: op,cit, p ٣٨١ .

(٢) محمود كعت : مصدر سابق ، ص ٦٨ .

(٣) السعدي : مصدر سابق ، ص ٨٢ ..٣٤٠ . Trimingham J.s : op,cit,

القاضي محمود فهو آمن<sup>(١)</sup> ، كذلك خرج الفقيه مورمع كنى الذي شبه فعل أسكيا موسى بفعل سني على ، فخرج مع الطلبة من جنج فسلم على الأسكيا موسى وسلم عليه ودعاه ، ثم طلب منه أن يعفو عن درمكى وبركي وهما من قواد الجيش ، وقال له لا ترد شفاعتي حتى لا أكف لك عن الدعاء. ورغم صراحة الفقيه مورمع كنى وإظهاره لرأيه المعارض لسياسة أسكيا موسى ، فإن الأخير لم يتخذ أي موقف تجاهه<sup>(٢)</sup> نظرا لقوة هذا الفقيه وقوة الهيئة التي ينتمي إليها، خاصة وأن أسرة الأسكيا مرتبطة عضويا بمساندة الفقهاء .

بعد مقتل الأسكيا موسى على يد أحد إخوته في عام (٩٣١هـ / ١٥٣١م) . لم تبدأ الحروب ، رغم اعتلاء الأسكيا محمد بنكن ابن عمر كمزاغ العرش بعد مقتل ابن عمه ، ثم اعتلى العرش أخوه إسماعيل الذي عمل على تهدئة الأجواء منذ عام (٩٣٦هـ / ١٥٣٧م) وأخرج أباه الأسكيا محمد من سجنه في جزيرة كنيكاك ، وولى إخوته كرؤوس حكومات محلية، فأحسنوا السيرة واحترموا الفقهاء ، وضربوا على أيدي المرابين وحددوا الأسعار<sup>(٣)</sup> .

ولما تولى الأسكيا إسحاق العرش عام (٩٤٦هـ / ١٥٣٩م) ، تقدم الفقهاء والأعيان لمبايعته بالملك ، وذهب هو بنفسه إلى مدينة تنبكت ودخل دار القاضي محمود أقيت طالبا منه الدعاء . وكان الأسكيا إسحاق صالحاً مباركاً كثير الصدقات حريصاً على صلاة الجماعة سابقا إليها قبل غيره و لا يمنعه عنها المطر والوحل وظلمة الليل<sup>(٤)</sup> .

(١) نفس المصدر ، ص ٨٣ .

(٢) السعدي : المصدر السابق ، ص ٨٦ .

(٣) المصدر السابق والصفحة

(٤) محمود كعت : مصدر سابق ، ص ٨٨ .

وقد انتهر فقهاء المالكية حرص أسكيا إسحاق على العدل وتدينه الشديد فقاموا بنصحته وحثه علي السير في رعيته بالعدل ، ويتضح هذا الأمر حين زار هذا الأسكيا مدينة جنني ودخل مسجد المدينة الكبير وأمر أن يحضر العامة والخاصة من سكان هذه المدينة ، ثم جاء الأسكيا ومن معه من الأعيان وامتلات الصفوف و الأساطين ثم أمر ترجمانه أن ينادى بالناس يعلمهم حالفا بلفظة "والله" فاسافرت سفري هذا إلا لإصلاح البلاد ولمصالح العباد...والآن من يؤذى المسلمين ومن يظلم الناس في هذا البلد . ودخل الترجمان في الصفوف يتبعها ويقول ذلك والجماعة ساكتة ، وكان ممن حضر في تلك الجماعة الفقيه القاضي محمود بن أبي بكر بغيغ وهو جالس بقرب الأسكيا ، فلما طال الحال عليهم فما رد أحد له جوابا قال له الفقيه محمود : "الحق ما تقول يا إسحاق فقال والله الحق فقال : إن علمناك بذلك الظالم فماذا تفعل له ، فقال له : ما يستحق من قتل أو ضرب أو سجن أو إجلاء أو رد ما أتلفه من المال وغرمه ، فقال له الفقيه محمود : "ما عرفنا هنا أظلم منك أنت ولا يغضب غاصب هنا مغصوبا إلا لك وبأمرك ويقوتك إن كنت تقتل الظالم فابدأ بنفسك...!". فلما سمع الأسكيا بذلك تحير ودهش وتنفس الصعداء ويكى وندم على قوله حتى رحمه الناس وحتى عبس وجه قومه على الفقيه محمود بغيغ . وقال له بعضهم أنت القائل للسلطان هذا القول ، وكادوا أن يسطوا عليه فردهم الأسكيا عن ذلك وانتهرهم فما صدر منه إلا الأذعان والخشوع والحشمة ، بل قال : صدقت والله وأنا تائب لله واستغفره ثم نهض إلى منزله باكياً، ثم ولاه قضاء مدينة جنني بعد إباية من هذا الفقيه<sup>(١)</sup>.

وقد نهج أسكيا داوود الذي تولى العرش عام (٩٥٦- ٩٩٠هـ/١٥٤٩م - ١٥٨٢م)<sup>(٢)</sup> نهج الأسكيا محمد الكبير في سياق احترامه وتودده للفقهاء ، فنجده

(١) المصدر السابق: ص ٨٨ ، ص ٨٩.

(٢) السعدي : مصدر سابق ، ص ١٠٠ ، ١١٣.

مع والد أحمد بابا الفقيه أحمد ابن عمر بن محمد أقيت (٩٢٩-٩٩١هـ / ١٥٢٢-١٥٨٣م) والذي كان عظيم الجاه وافر الحرمة عند الملوك والناس كافة نافعاً بجاهه، ولذلك كان لا يرد له شفاعاة وكان هذا الفقيه يُغَلظ القول للملوك فمن دونهم، وينقادون له أعظم الانقياد، ويزورونه في داره، ولما مرض في كاغ في بعض أسفاره، كان أسكيا داوود يأتي إليه بالليل حتى يبرأ من مرضه وسمر عنده تعظيماً لقدره<sup>(١)</sup>.

وتظهر أخلاق أسكيا داوود الحميدة من خلال حسن ملاطفته مع القاضي العاقب عند بناء المسجد الكبير في تنبكت، وقد سعى وشاة وتقولوا على لسانه ما لم يقل، وأرسل له أسكيا أقوالاً لا يتبغيان تُقال بينهما، فأجابه القاضي بأجوبة قاسية لا يصبر عليها إلا مثل داوود. فلما أتاه أسكيا في سفره إلى مل وزاره في بيته وعليه الحاجب الذي رده وأبى أن يدخله عليه فوقف أسكيا على بابه على قدميه وقوفا طويلاً وما أستأذن له في الدخول إلا بشفاعاة بعض فقهاء البلد وأكابر شيوخه، ثم أمر بفتح الباب له ودخل عليه متملقاً متواضعاً متذللاً وانكب على رأسه فقبلها وجلس بجانبه مستوقراً حتى أرضاه ورضي وتوافقا بعد إباء وامتناع<sup>(٢)</sup>.

كذلك حدث في عهد الأسكيا داوود خلاف بينه وبين الفقيه محمود كمت، ويدل هذا الخلاف في نهايته على مدي تحدى سلطة الفقهاء لسلطة الحكام وإرادتهم، وكذلك اعتراف السلطة الحاكمة بقدرهم<sup>(٣)</sup> فقد قال الأسكيا داوود للفقيه محمود

(١) محمود كمت: مصدر سابق، ص ١١٥.

(٢) المصدر السابق: ص ١٠٩.

(٣) ومن ذلك: "في يوم مقدم بعض الحجاج من أهل تنبكت وجواليها في بعض السنين وكان منهم رجل من أهل كنت وهو من محالِك أسكي داوود وقد حج معهم ونزلوا بخارج بلد كاغ وعادة الحجاج في وقت دولة سُغنى إذا قفلوا يتزلون خارج البلد ولا يدخلون إلا بعد مشاورة أسكيا، واستذاته ويخرج الأسكيا لملاقاتهم ويأتيهم بالكسوات واللباس ويسألهم الدعاء والتبرك بهم فلما قدم هؤلاء الحجاج

كعت " ولولا العلماء لكننا من الهالكين فجزأك الله. عنا خيرا " ، وبعد رجوع هذا الفقيه إلى بلده أرسل أسكيا عشرة أثواب وخمسة عبيد ، وقال له : " هذا جزاؤك لأنك حلت بيني وبين معصية الله وغضبه وأعوذ بعزة الله وقدرته من ذلك " (١).

وتعددت الروايات التاريخية التي تبين احترام أسكيا داوود لفقهاء المالكية منها ما حدث بينه وبين الفقيه أحمد بن محمد بن سعيد سبط القاضي محمود بن عمر بن محمد أقيت الذي قدم له نقداً لا ذعاً (٢) عندما ذهب إليه بعدما عفا عن الفقيهين

المذكورين ونزلوا بخارج البلد على عادتهم المألوفة وسمع بذلك الاسكيا داوود وكان عنده الفقيه كعت الذي خرج معه ومعهم بعض رؤساء البلد ، وبالفعل وصل إليهم وأتوه ونزل أسكيا بنفسه إجلالاً لهم وتعظيماً وقيل أيليم وأقبل الرجل الكتوي الذي تقدم ذكره بأنه من ممالك أسكيا داود وهو لا يشعر به ولا يعلم أصله فصافحه وأراد تقبيل يده ، وكان هناك رجل بجانب أسكيا داوود ، وقد عرف ذلك الحاج الكتوي المذكور وعرف أصله وأبويه وقال له : أخرج يدك من يد أسكيا أتصافحه يدك وما خرجت من قوم يقدر على هذا فكيف أنت عبد وما أجراك على مصافحة السلطان وأخذ يده ونزعها من يد أسكيا وحلف على قطع يده التي أدخلها في يد أسكيا وعظم القوم ذلك وتعجبوا من جرأته على يد أسكيا بإدخال يده فيها والفقيه كعت ساكت بجانبه ، فألقت إليه أسكيا وقال : يا محمود ما تقول في هذه المسألة فما جزاء من جهل قدرة وهنا قال الفقيه محمود كعت ألا أن تقطع يده وهذا أولى به فقال له أسكيا أنشدك بالله هل يجوز قطع يده على هذا فقال كيف لا يجوز قطع يد من وقف عرفة وطاف الكعبة ووضعها على الحجر الأسود ثم وضعها على الركن الثاني ورمى بها الجمرتين ثم زار الرسول ﷺ ووضعها على قبر أبي بكر وعمر ، ثم لم يكف بهذه المزايا والفضائل والمحامد كلها حتى أتاك يصافحك بها لتعطيه غرضاً قليلاً حيثما من أعراض الدنيا ، بل حتى هذه اليد أن يضمن صاحبها بها ويحفظها من النجاسة ولا يرضى أن يصافحك بها قلباً صافحك بها لثنتها ليجتنت لها بسوء الخاتم ، ونعوذ بالله من ذلك . محمود كعت : مصدر سابق ، ص ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ .

(١) المصدر السابق ، ص ١١٣ .

(٢) وكان هذا النقد عندما قال له الفقيه : عجبت منك حين دخلت عليك وما حسبتك إلا مجنوناً رذيلاً سفها حين رأيتك تبصق في أكمام قمصان والناس يحملون على رؤوسهم التراب لك ، فضحك الاسكيا وقال : ما كنت مجنوناً أنا بعقلي ولكن كنت رئيس المجانين الفاسقين المتكبرين ، ولذلك جعلت نفسي مجنوناً وأدخلت الجن على نفسي تخويفاً لهم لئلا يتعدون على المسلمين ، أنظر محمود كعت : مصدر سابق ، ص ١١٤ .

محمد بنغيع وأخيه أحمد بنغيع<sup>(١)</sup> في كاغ . ويقى الفقيه أحمد بن محمد عنده فأمر الأسكيا بطعامه وناشد الفقيه أحمد بالله أن يأكل معه فأجاب فأكل ، ثم خرجا لمقابلة الفقيهين ، وعندما شهدهما أنكب على رأسيهما يقبلهما وحياهما بأحسن تحية وإكرام مع ضيافة عظيمة وزيارتهما كل ليلة إلى رجوعهما بالمنح التي زودهما بها<sup>(٢)</sup>.

وكان لفقهاء المالكية مواقف خاصة في الأزمان التي تعرضت لها صغفي ، وبخاصة في أواخر عهد الأساكي فعندما تعرضت البلاد إلى الحملة المغربية وبسبب مواقفهم المؤثرة داخل المجتمع أرسل المنصور السعدي مع جودر باشا عام ٩٩٨هـ / ١٥٨٩م<sup>(٣)</sup> عندما دخل مدينة تنبكت رسالة إلى قاضيها الإمام العلامة أبي حفص

(١) بعدما رفضا منصب القضاء وألح عليهما في ذلك ولكنها رفضا وهربا ودخلا المسجد وأقاما به شهورا وبأبي رسل أسكي كل يوم إلى أن عفي عنهما ثم قال لا أعفو حتى يأتياي إلى كاغ وتبرك برؤيتهما فخرجا إليه وخرج معها الفقيه أحمد بن محمد بن سعيد وبالفعل ذهب إليه الفقيه أحمد بن محمد وحده وترك الفقيهين المذكورين بمرسى كاغ ودخل عليه والتفاه في مجلس الجمعة على عاداتهم وعبيده الخصيان واقفون على رأسه وكانوا نحو سبعمائة وعلى كل واحد منهم لباس الحرير ، وإذا أراد أسكيا أن يبصق أو يتفل أسرع إليه بعض الخصيان وباسطاً له كفه ليصق فيه ثم يمسح فاه من النخام ، ودخل الفقيه وتلقاه الاسكيا بالترحيب حتى كاد أن يقوم للملاقاته إلا أنهم إذا جلسوا على سريرهم في ناديتهم يوم الجمعة أو يوم العيد لا يقومون لأحد ولا يجلس أحد معه على سريره ، ثم أمر بإخراج الناس فأخرجوا ليخلوا بذلك الفقيه فلما انفرد به قام إليه وحمل حصير الصلاة بيده وفرشه له وأجلسه عليه وحمل إليه الوسادة وقبل يده ومسح وجهه بها ثم أخبره الفقيه بمكان الفقيهين بالمرسى وفرح الاسكيا بهما كثيرا ، ثم أمر الفقيه الفع بكر الإنباري أن يأتيها هنالك وأصرح الفرسين ليركبوها وفعلا وسمى لهم بيتا يتزلون فيه ، أنظر محمود كعت : مصدر سابق ، ص ١١٤ ، ص ١١٥ ، ١٥٥. Levztzion,N:op cit,p

(٢) محمود كعت : مصدر سابق ، ١١٥ .

Stephen Charles Cory: The Caliphate and polilical Legitimacy In Early Modern Morocco, ADisseraion submitted in partial satisfaction of the requirements for the degree of doctor of philosophy in History, University of California Santa Barbara, ٢٠٠٢, p١٤.

عمر بن الشيخ سيدي محمود بن عمر أقيت ، يبرر له أسباب الحملة ، وأن يحض الناس على الدخول في الطاعة ولزوم الجماعة<sup>(١)</sup> ، لان هذا لا يحدث إلا بمساعدة الفقهاء .

وفي بداية حكم المغاربة حدثت الفتنة بين أهل تنبكت وبين القائد التركي ، فتدخل القاضي أبو حفص عمر بن محمد بن محمود أقيت ، وطلب الشفاعة من الأمير المغربي لمجموعة من أهل تنبكت ، وانتهى الأمر بقبول الأمير شفاعته لعظم قدره وعقد الصلح بين القائد وأهل تنبكت<sup>(٢)</sup> .

وهكذا ارتفعت منزلة فقهاء المالكية بفضل توقيير حكام صُنغي لهم واعترافهم بدورهم في حماية الملة وبفضل هذه المكانة أسندت إليهم العديد من الوظائف والولايات الدينية التي ستعرض لها .

(١) القشنتال : "أبو فارس عبد العزيز القشنتال المتوفي عام ١٠٣١هـ / ١٦٢١م" مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفاء ، دراسة وتحقيق الدكتور عبد الكريم ، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، الرباط ١٩٧٧م ، ص ١٣١ ، ص ١٣٣ .

(٢) السعدي : مصدر سابق ، ص ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٥٧ .

## ٢- الخطط والولايات التي تولاها فقهاء المالكية في السودان الغربي :

أ- خطة الكتابة<sup>(١)</sup> :

اعتبر ابن خلدون خطة الكتابة إحدى الصناعات التي تؤدي إلى مخالطة الملوك، فأصبح لها بذلك شرف ليس لغيرها<sup>(٢)</sup>. وتبرز أهمية الكاتب في المرحلة التي يشب فيها عود الدولة، ويشرع خلالها الأمراء في تحصيل ثمرات الملك من الخراج و الجبايات وغيرها، وعندئذ يصبح أرباب الأقلام أوسع جاها وأعلى رتبة وأعظم نعمة وأقرب من السلطان مجلسا وأكثر إليه ترددا<sup>(٣)</sup>.

وكان رجال الدين يعتبرون طبقة من المتخصصين أساسا في فن الكتابة، ويمتلكون نظامهم الخاص بهم، كما كانت خطة الكتابة تتجه إلى أن تكون وراثية<sup>(٤)</sup>. وقد تجلت حاجة دولتي مالي وُصنغى للكتابة من أجل توجيه الأوامر للرعية وكتابة الرسائل والإشراف على جباية الموارد وما يتطلبه ذلك من حسابات، فضلا عن نقل أخبار المعارك. لذلك كان من الطبيعي أن يحتل الكاتب مكانة مرموقة في سلم الهرم الوظيفي، وأن تشمله رعاية الأمراء سواء في دولة مالي أو دولة صنغى،

(١) تشبه وظيفة الكاتب في عدة وجوه وظيفية كاتب الديوان التي كان لها أصولها وقواعدها ولاسيما في العصر العباسي الأول عندما اقترنت باسم عبد الحميد الكاتب، أما في السودان الغربي عامة وفي تنبكت خاصة فقد اقترنت باسم كاتب موسى الذي تولى هذه الوظيفة في عهد السلطان منسا موسى، وهي الوظيفة التي انحصرت في حمل قرارات الحاكم إلى أقاليم دولته المختلفة، والقيام بالأمور الكتابية الخاصة بالعلاقات الداخلية، أنظر مهدي رزق الله أحمد: حركة التجارة والإسلام والتعليم الإسلامي في غربي إفريقيا قبل الاستعمار وآثارها الحضارية، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، ص ٥٢٨.

(٢) ابن خلدون: المقدمة، ص ٣٠٧.

(٣) المصدر السابق: ص ٣٠٨.

(٤) Trimingham J.s: Islam in west Africa, p9٧.

(٣)

ولذلك وضعت شروط ومواصفات صعبة لاختيار الكاتب حددها ابن خلدون<sup>(١)</sup> بأن يختار "من أرفع طبقات الناس ، وأهل المروءة والحشمة منهم ، وزيادة العلم وعارضة البلاغة... والقيام على الآداب والتخلق بالفضائل... وتطبيق مقاصد الكلام من البلاغة وأسرارها".

وقد عرفت خطة الكتابة في مملكة مالي حيث كان الكاتب يساعد الفاريا<sup>(٢)</sup> وينفذ أوامره، وكانت مهمة الفاريا تتلخص في السهر على حفظ الأمن والنظر في الأمور الإدارية، ويساعده في عمله كاتب ينفذ أوامره. وحسبنا يظهر من كلام ابن بطوطة فإن هذا الكاتب غالباً ما يكون قتيها عارفاً بشئون الإنشاء وقواعد الشريعة الإسلامية<sup>(٣)</sup>.

ومن المؤسف أن المصادر لم تحفظ لنا سوى اسماً واحداً ممن تولى خطة الكتابة في دولة مالي وهو كاتب منسا موسى<sup>(٤)</sup> الذي رحل إلى فاس لتعلم العلم بأمر من السلطان منسا موسى سلطان دولة مالي الإسلامية<sup>(٥)</sup>.

كما لم تذكر لنا كتب المصادر سوى ثلاثة أسماء من كتاب دولة صنغى، أولهم الكاتب إبراهيم الخضر<sup>(٦)</sup> وكان في عهد سني على الذي رتبته كاتباً لديه إلى اليوم

(١) ابن خلدون: المصدر السابق، ص ٣٠٨، ٣٠٩.

(٢) الفاريا: هو نائب عن الملك في الإقليم الذي كانت مهمته تتلخص في السهر على حفظ الأمن والنظر في الأمور الإدارية، فمثلاً قرياً سليمان الذى قابله ابن بطوطة ولقى عنده قتيهاً كاتباً يكتب له، وهو الذي كتب له ما يريد وعرضه على قرياً سليمان وهو بالقرب من مدينة تيبكت، أنظر ابن بطوطة: مصدر سابق، ص ٦٧٦.

(٣) المصدر السابق، ص ٦٧٧.

(٤) هو: الإمام سيدي أحمد كان رحمه الله عالماً عادلاً رحل من أرضه إلى فاس للتعليم في دولة أهل مالي بأمر السلطان الحاج كتك موسى أنظر، الأروانى: السعادة الأبدية، ص ١٢٣.

(٥) السعدي: تاريخ السودان، ص ٥٧.

(٦) إبراهيم الخضر وهو قاسى جاء لتيبكت وسكن فيه في حومة الجامع الكبير، في زمن سني على، أنظر السعدي: تاريخ السودان، ص ٦٨.

الذي أنقلب عليه وأمر سني على بقتله وأخذ جميع أمواله فنفذ أمره ولكن الخداء أخفوه عن أعين سني على ولم ينفذوا أمره إلى أن جاء اليوم الذي احتاجه فيه سني على حيث جاءت له رسالة ولم يكن عنده قارئ ليقوم بقراءة ما فيها فقال سني على " إن كان إبراهيم حيا لم نتوكل في هذا الكتاب " فقالوا له إنه موجود وهو حي أخرناه فأمر بإحضاره فقرأ الكتاب وردده إلي خطته وأعطاه ضعف ما ضاع له من المال وظل في خطة الكتابة بعد وفاة سني علي و مجيء عهد أسكيا الحاج محمد الكبير الذي أبقاه في مقامه عزيزا مكرما إلى أن توفي فخلفه ابنه حوي الذي كان كاتبنا لناظر أسكيا في تنبكت وكان في رتبة وقدر عظيم<sup>(١)</sup> .

ثم ذكرت المصادر الكاتب على بن عبد الله بن عبد الجبار اليمنى و الذي كان يعمل كاتباً لدى الاسكيا الحاج محمد الكبير<sup>(٢)</sup> ، وأشهده الأسكيا محمد الكبير على كتابة وثيقة عدم التعرض للشريف أحمد الصقلي هو ورهطه الذين جاءوا معه بالإضافة إلي ذريتهم في شئ من أمور السلطنة كما لهم الشفاعة في كل شئ إلا النفس التي حرم الله<sup>(٣)</sup> .

كما أمر الأسكيا الحاج محمد الكبير كاتبه عبد الله بن على بكتابة وثيقة حفدة الشيخ مورهوكار<sup>(٤)</sup> الذين اشتكوا للأسكيا الحاج محمد البؤس والشدة التي عاملهم بها سني على . فأمر الأسكيا محمد كاتبه أن يكتب لهم وثيقة الحرمة التي يسرون بها في البلاد ليحموا بها أعراضهم وأشهد عليها كاتبه هذا ، وكذلك القاضي إسماعيل

(١) المصدر السابق ، والصفحة .

(٢) محمود كعت : الفتاش ، ص ١٥ ، ٧٤ .

(٣) المصدر السابق : ص ١٨ ، ١٩ . وأنظر نص الوثيقة في الملاحق .

(٤) وهم مور الصادق ، مور حبيب ، مور محمد أنظر المصدر السابق ، ص ٧٢ .

بن محمود كعت<sup>(١)</sup> وكان هذا الكاتب من أصحابها الأسكيا الحاج محمد في رحلة حجة<sup>(٢)</sup>.

كما ذكرت لنا المصادر الكاتب الفقيه بكر الأنباري<sup>(٣)</sup> الذي تولى خطة الكتابة على عهد الأسكيا داوود وهو الذي قام بكتابة وثيقة العتق لأولاد وأحفاد السيدة العجوز التي جاءت للأسكيا داوود لحاجة لها عنده<sup>(٤)</sup>. كما قام هذا الفقيه بتبليغ الاسكيا داوود رسالة القاضي محمود كعت الذي طلب منه أن يعينه على متطلبات فرح أبنائه الذكور والإناث<sup>(٥)</sup>. كما كان الفقيه بكر الأنباري ممن كتب وشهد على إعطاء الدية لابن القاسم بن مزاور الشريف الونكري لقتل الأسكيا داوود أخيه عن طريق الخطأ<sup>(٦)</sup>. هذا بالنسبة لخطة الكتابة التي تولاها عدد من فقهاء المالكية في دولة مالي الإسلامية وكذلك دولة صنغي الإسلامية.

(١) المصدر السابق: ص ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٧٥.

(٢) المصدر السابق: ص ١٦.

(٣) هو الفقيه بكر الأنباري وكان يلقب بأسكي الفع بكر أنبار، أنظر، المصدر السابق، ص ١٤٧.

(٤) "جاءت هذه العجوز إلى الاسكيا داوود وطلبت منه أن لا يفرق بين أولادها وأحفادها وأسباطها البالغ عددهم سبعة وعشرين إذا باعهم أو وهبهم أن يكونوا للشخص واحد حتى لا يترقوا فأجابها بأنه أعتقهم شكرا لله ثم قالت له أريد منك أن تكتب لهم وثيقة بشهادة هؤلاء الجلساء الصالحين خوف دوران الزمان وانقلاب الأحوال وتغير الأمور ونادي على كاتبه ليكتب لهم وثيقة عتقهم وهو الذي استنطق الأمة العجوز بأن تذكر أسماء أولادها فكتبتهم في ذلك المجلس بشهادته وشهادة من حضر" ، أنظر محمود كعت: مصدر سابق، ص ١٠٣، ١٠٤.

(٥) محمود كعت: الفتاش، ص ١٠٨.

(٦) وكانت هذه الدية عن قتل أخي الشريف ابن القاسم مزاور وكانت عبارة عن أراضي في ثلاثة أماكن وكل مكان كان يساوي مائتي نفس، لأنه لم يستطع أن يستغفر لهذا الذنب بسفرة للحج والاستشفاع برسول الله ﷺ، أنظر محمود كعت: الفتاش، ص ١١٦، ١١٧.

وإذا كانت المصادر لم تقدم لنا إلا عددا قليلا من فقهاء المالكية في دولة مالي الإسلامية وكذلك دولة صُغى الإسلامية ممن تولوا خطة الكتابة فإن هذه المصادر قد أمدتنا بمعلومات وافية عن تولى خطة الفتيا والقضاء في هاتين الدولتين .

### ب - خطة القضاء و الفتيا:

يعد منصب الإفتاء والقضاء من أشرف وأجل المناصب ، وكان رسول الله ﷺ أول من تولى منصب الإفتاء والقضاء في أمته ، ثم جاء من بعده الصحابة والتابعون ، ثم أئمة المسلمين وفقهاؤهم . وكان المفتون والقضاة محل تقدير وتبجيل بفضل مهمتهم الجسيمة في تبليغ الأحكام الشرعية ،<sup>(١)</sup> ولذلك أجمع العلماء على أن الفقيه لا يتبوأ خطة الإفتاء أو خطة القضاء إلا إذا توفرت له شروط ومؤهلات معينة<sup>(٢)</sup> . ومن أهم هذه الشروط هي تلك التي تتعلق بالجانب العلمي ، حيث يجب أن يكون عالماً لأن المطلوب منه أن يبين الحق وهو الحكم الشرعي المتعلق بالعبادة أو المعاملة<sup>(٣)</sup>

(١) وكان الإمام مالك يكره التسرع في الفتوى ونقلت عنه أخبار كثيرة في هذا المجال ، منها قوله : "جنة العالم لا أدري فإذا أخطأها أصيبت مقاتله" وقوله : "من أحب أن يجيب عن مسألة فليعرض نفسه قبل أن يجيب على الجنة والنار ، وكيف يكون خلاصه في الآخرة ثم يجيب" أنظر فتاوى الشاطبي ص ٨٠ ، يرى الشاطبي : (أبو إسحاق بن موسى بن محمد اللخمي الشهير بالشاطبي المتوفى عام ٧٩٠هـ ، ١٣٨٨م) سوهو من كبار الفقهاء المجتهدين ، كان شديدا على أهل البدع ، أنظر ، أحمد بابا : كفاية المحتاج ، ج١ ، ص ٩١ .

(٢) قال الإمام مالك : (لا ينبغي للعالم أن يفتي حتى يراه الناس أهلا لذلك ، ويرى هو نفسه أهلا لذلك) ، أنظر القرافي : الفروق ، مطبعة دار المعرفة بيروت ، ج٢ ، ص ١١٠ .

(٣) ويشمل هذا الشرط :

أ - معرفته بكتاب الله عز وجل (بناسخة ومتسوخه، ومحكمه ومتشابهه، وتأويله، وتزييله، ومكيه ومدنيه ، وما أريد به) أنظر ، ابن القيم الجوزية : أعلام الموقعين ، ج١ ، ص ٣٥ ،

ب - وكذلك معرفته بسنة رسول الله ﷺ بحيث يعرف من الحديث < مثل ما عرف من القرآن > أنظر نفس المرجع والصفحة

وكذلك اهتم العلماء ببعض الشرط الأخلاقية إلى جانب الشروط العلمية لمن يتولى خطة الفتيا أو القضاء حيث نجدهم يلحون على عدالة من يتولى مهمة الإفتاء والقضاء<sup>(١)</sup>. وإن كانت الشروط المتعلقة بالجانب العلمي وبالجانب الأخلاقي متوفرة و موجودة فهي غير كافية لقيام الفقيه (المفتي والقاضي) بواجبه على أحسن وجه ما لم تكن له قريحة<sup>(٢)</sup> وما لم يمتلك ملكة الإفتاء والقضاء والتمكن من التصرف في مخزونه المعرفي فيحسن تطبيق ما يعرفه من كليات علم الفقه على جزئيات الوقائع التي تعرض عليه ، وهو أمر عسير على كثير من الناس<sup>(٣)</sup> وهذا لا يكتسب إلا بالدراية والتجربة . كما يجب أن يكون الفقيه (المفتي - القاضي) على دراية واطلاع على كتب الفتاوى والنوازل ليعرف من خلالها كيفية تطبيق الأحكام على

ج - معرفته باللغة العربية وعلومها ، ومعرفته كذلك بالفقه وأصوله حوذلك يكون عكماً لأبواب الفقه ، مستحضراً للنصوص المذهب الذي يفتى به) مع التمييز بين العام والخاص ، والمطلق والمقيد ، عارفاً باصطلاحات العلماء . ويكون متقناً لقواعد الأصول إتقاناً يمكنه من تنزيل الأحكام على القضايا ، وإدراج الجزئيات تحت الكليات .

د - وكذلك تكون معرفته بأحوال الناس ، حتى يكون عارفاً بظروف المجتمع ، مطلعاً على عادات الناس وأعرافهم وحيلهم ومكايدهم (فإن الفتوى تتغير بتغير الزمان والمكان والعوائد والأحوال) ، أنظر ابن القيم الجوزية : مصدر سابق ، ص ٣٥ ، ٣٦ .

(١) كما رواه أبو داود الطيالسي من حديث عائشة رضي الله عنها أنها ذكر عندها القضية فقالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : " يؤتى بالقاضي العدل يوم القيامة فيلقى من شدة الحساب ما يتمنى أنه لم يقض بين اثنين في ثمرة قط " ابن القيم الجوزية : مصدر سابق ، ص ٣٦ .

(٢) ابن الجوزية : مرجع سابق ، ج ١ ، ص ١٠ . ، وما يدل على كمال الفقيه (المفتي والقاضي) العدول عما مثل عنة إلى ما هو أنفع للمستفتى في دينه مع بيان المسؤل عنه ، وإجابة السائل بأكثر مما سأل عنه ، وإذا كان الجواب يقتضي منع المستفتى من شيء تدعوه الحاجة إليه فعلى المفتي أن يدلّه على عوض وبديل له ليفتح له الباب المتاح ، والإفتاء بلفظ النص وتعزيز الحكم الذي يفتيه بحجته ودليله ، أنظر ابن الجوزية : أعلام الموقعين ، مرجع سابق ، ج ٤ ، ص ١٧٢ ، ص ٢٦٠ .

(٣) الشاطبي : فتاوى الشاطبي ، ص ٧٥ .

القضايا الجزئية<sup>(١)</sup> ويضاف إلى ذلك صفات يجب أن يتصف بها الفقيه (المفتى - القاضي) كالرصانة والتثبت في الإفتاء والإحكام<sup>(٢)</sup>.

هذا ولم يكن عند أهل السودان الغربي قانون مدون قبل الإسلام يحدد نظام الإفتاء والقضاء، بل كانوا يتحاكمون بما توارثوه عن أسلافهم من أساطير وتقاليد وأعراف منتشرة بينهم، وكانت هذه التقاليد والأعراف عندهم بمثابة قوانين ثابتة لا يجوز مخالفتها وكان الإفتاء والقضاء مبنيين على تلك التقاليد والعادات المحلية، وكان نظام الإفتاء والقضاء عندهم عن طريق الملك وكاهن المعبد فهو يستفتيه في الأمور ويقوم هو (الملك) بتنفيذ ذلك الأمر لأنه هو الذي يملك سلطة التنفيذ<sup>(٣)</sup>.

ومنذ أن كرم الله أهل هذه البلاد وسخر لها همم المؤمنين لنشر دينه الخفيف بين ربوعها كان أهلها وحكامها يسألون ذوي العلم من الفقهاء عن أمور دينهم، ويستفتونهم حول حكم ما ينزل بهم في حياتهم من أحداث ووقائع<sup>(٤)</sup> وكان هؤلاء

(١) محمد بن الحسن الخجوي: الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي مطبعة المكتبة العلمية، المدينة المنورة ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م، ج ٤، ص ٤٢٨.

(٢) رواه الدرراني في سنته، في باب الفتيا وما فيه من الشدة، ونصه: "أخبرنا إبراهيم بن موسى، حدثنا ابن المبارك عن سعيد بن أبي أيوب، عن عبيد بن أبي جعفر قال: رسول الله ﷺ "أجر أكم على الفتيا أجر أكم على النار" أنظر سنن الدرراني ج ١، ص ٥٧، دار إحياء السنة النبوية.

(٣) "بعلبعودة الأسكيا محمد من الحج في عام (٩٠٣هـ / ١٤٩٧م) أراد أن يغزو بلاد الموش التي ظلت على وثنياتها وعلى عاداتها وأعرافها الوثنية القديمة، فأرسل إليهم رسولا يعرض عليهم الدخول في الإسلام، فأجابهم كبيرهم بأنه لا يستطيع الجواب قبل استشارة كاهن المعابد، فنودي على هذا الكاهن والذي ذهب إلى كبير الأصنام يستطلع رايه بحضور رسول الأسكيا وملك الموش، وقد كان الجواب الذي أستطلعه الكاهن الكبير من كبير الآلهة، أن على ملك الموش أن لا يفرط في عبادة الأجداد" ولهذا رفض الملك طلب الأسكيا بالدخول في الإسلام، وهذا يظهر أن السودانيين قبل اعتناق الإسلام، كانوا يستشيرون ويستفتون رأي الكهنة في كل ما يقدمون عليه. - للسعدي: مصدر سابق، ص ٧٤، وكذلك أنظر عبد القادر زبادة: أسئلة الاسكيا وأجوبة المغيلي، ص ١٧٠.

(٤) أنظر السؤال الأول من أسئلة الأسكيا وأجوبة المغيلي عليها: عبد القادر زبادة، الحضارة العربية

الفقهاء (المفتون والقضاة) يقومون بالرد عليهم من خلال مصادر التشريع الإسلامي وخاصة كتب الفقه المالكي المعتمدة في الإفتاء والقضاء<sup>(١)</sup>.

ويعد منصب القضاء من أهم المناصب التي تولاها فقهاء المالكية في دولتي مالي وُصنغي، وكان من أشهر قضاة دولة مالي الإسلامية القاضي أبو عباس الدكالي الذي شغل خطة القضاء بعاصمة مالي أيام السلطان منسا موسى، وكان هذا الفقيه قد أقام بمملكة مالي مدة طويلة وكان يشغل خطة القضاء بعاصمة مالي. كما تولى خطة القضاء الفقيه القاضي كاتب موسى الذي أرسله السلطان منسا موسى إلى فاس للأخذ عن فقهاؤها فعاد شعلة من العلم وتقلد منصب القضاء بتنبكت، والفقيه القاضي محمد الكابري الذي توطن مدينة تنبكت وتولى القضاء بها وتوفي بها، وتقلد أيضا الفقيه القاضي أبو عبد الله محمد بن وانسول خطة القضاء في مدينة كوكو، كما كان الفقيه القاضي عبد الرحمن قاضيا في نياني العاصمة أيام منسا سليمان<sup>(٢)</sup>. وفي أواخر دولة مالي تولى الفقيه المفتي الحاج جد القاضي عبد الرحمن بن أبي بكر بن الحاج<sup>(٣)</sup> خطة القضاء بتنبكت وهو أول من أفتى وأمر الناس بقراءة

والتأثير الأروبي في أفريقيا الغربية جنوب الصحراء، دراسات ونصوص، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٩م، ص ١٦١، ١٦٢، ١٦٣.

(١) ومنعوا الفتوى من الكتب الغربية التي لم تشتهر حتى يعلم صحة ما فيها، وكذلك الكتب الحديثة التصنيف التي لم يتم تحقيق نقولها عن الكتب المشهورة، أنظر السيوطي: الحاروي للفتاوى، ج١، ص ٣٤٠.

(٢) هو من السودان، كان قاضيا في نياني العاصمة أيام منسا سليمان، لفيه ابن بطوطة وأثنى عليه كثيرا، أنظر، ابن بطوطة: مصدر سابق، ص ٦٧٤.

(٣) هو: الفقيه القاضي: "عبد الرحمن بن أبي بكر بن الحاج" ومن نسل هذا الفقيه القاضي عليها آخرون تولوا مناصب القضاء والتعليم في مناطق أخرى من مدن السودان الغربي من قبل أسكيا الحاج محمد، السعدي: تاريخ السودان، ص ٢٨، البرتل: فتح الشكور، ص ٨٨، ٨٩، الأرواني: السعادة الأبدية، ص ٨٢.

نصف حزب من القرآن للتعليم في مسجد سنكرى بعد صلاة العصر وصلاة العشاء

وهذا يدل على أن القضاة في دولة مالي كان أغلبهم من المغاربة ، والقليل منهم كان من أهل تلك البلاد ، وهذا عكس الحال في دولة صُنغني ، حيث وصل إلى منصب القضاة العديد من أهل تلك البلاد ، إذ أن خطة الإفتاء والقضاء كمنصب رسمي لم تظهر وتبلغ ذروتها في التنظيم إلا في عهد دولة صُنغني الإسلامية ، حيث أصبح الفقيه (المفتي،القاضي) له سلطاته الواسعة ، بالإضافة إلى استقلاله في قضاياه<sup>(١)</sup> .

وقد قام بتنظيم خطة القضاء والإفتاء أسكيا الحاج محمد اقتباسا من المشرق أثناء رحلة حجه الشهيرة عام (٩٠١هـ / ١٤٩٥م) . وفي إطار التنظيمات المهمة التي قام بها في السلك القضائي ، حيث نصب في مدينة تنبكت وفي كل مدينة تستحق القضاء قاضيا<sup>(٢)</sup> ، وكان هو الذي يولى منصب قاضي القضاة أو قاضي مدينة تنبكت ومدينة جني ، وهم بذلك تابعون للسلطة المدنية ، أما قضاة الأقاليم فيوليهم قاضي القضاة<sup>(٣)</sup> ولذلك كان قاضي مدينة تنبكت يتمتع بمكانة عالية ، ويعتبر قاضيهما من أكبر القضاة ، وله مكانة وحرمة خاصة . وعلي الرغم من تبعية هؤلاء القضاة للسلطة المدنية إلا أنهم في أحكامهم التي يصدرونها مستقلون تمام الاستقلال عن أي اعتبار خارج نطاق الأحكام الشرعية المستمدة من روح الإسلام وحده ووفق

(١) محمد الغربي : مرجع سابق ، ص ٣٩٣ .

(٢) كان أسكيا الحاج محمد الكبير هو أول من ولى القضاء في مدينة جني عام (١٤٩٨هـ / ١٤٩٨م) إذ إنه في السابق لم يكن الشرع مطبقاً عند الفصل بين الناس في خصوماتهم وقضاياهم ، بل كانوا يحتكمون إلى خطيب المسجد الجامع الذي يسعى بينهم بالصلح ، السعدي : تاريخ السودان ص ١٨ .

(٣) قاضي القضاة هو قاضي مدينة تنبكت بعد مشاوررة السلطان واتفاق أهل البلد على هذه الولاية السعدي : مصدر سابق ، ص ٧٥ ، ٧٦ .

مذهب الإمام مالك<sup>(١)</sup> ، ولذلك كانوا حريصين في اختيارهم على أن يكونوا من الفقهاء البارزين في العلم و المتصلعين في الفقه المالكي ، متمتعين بالورع والصلاح والزهد<sup>(٢)</sup>.

ولم يكن أحد يتقلد منصب الإفتاء أو القضاء إلا إذا كان أهلا له خوفا من الله ، وخشية من خطورة تلك المسؤولية أمام الله ، وحتى أن كان أهلا لهذا المنصب فإنه كان يرفضه تورعا أيضا<sup>(٣)</sup> لذلك كان الفقهاء يتهربون من تولي منصب الإفتاء والقضاء ولا يتولونه إلا بعد إلحاح شديد من الأسكيا<sup>(٤)</sup>. وكان بعض فقهاء السودان الغربي قد تهربوا من تولي منصب خطة القضاء ، ونرى ذلك بوضوح بعد وفاة القاضي العادل العاقب عام (٩٩١هـ / ١٥٨٣م)<sup>(٥)</sup> في مدينة تنبكت ، وظل المنصب شاغراً لمدة عام ونصف العام<sup>(٦)</sup> وما تولاها أحد لان أسكيا أرسل في طلب الفقيه

(١) وقد أنسم تعاملهم مع المذهب بالسماة الآتية :

أ- التزام نصوص المذهب وعدم الخروج عنها إلى غيرها إلا ما كان على سبيل الاستثناء عند من تبيات لهم متانة العلم وسعة الأفق من المفتين .

ب- الإفتاء والقضاء بالقول المشهور في المذهب ، وعدم الخروج عنه إلا فيما ندر

ج- طغيان طابع التقليد في الإفتاء والقضاء وندرة طابع الاجتهاد ، أنظر الفكر السامي : ج٤ ، ص ٣١٨ .

(٢) levzion .N : op,cit,p٩٩ .

(٣) ابن القيم الجوزية : مصدر سابق ، ج-١ ، ص ٣٦ .

(٤) كان بعض أئمة المذهب المالكي قد بالغوا في التحذير من الدخول في ولاية القضاء وشددوا في كراهية السعي فيها ورغبوا في الإعراض عنها والمهرب منها " حتى تقرر في أذهان كثير من الفقهاء و الصلحاء أن من ولي القضاء فقد سهل عليه دينه وألقى بيده إلى التهلكة ، ورغب عما هو الأفضل " أنظر ابن فرحون : تبصره الحكام في أصول الأفضية ومناهج الأحكام ، ص ١٢ .

(٥) هو : " العاقب بن محمد بن عمر بن محمد أقيت بن عمر بن علي بن يحيى التنبكتي قاضي تنبكت (٩١٣-٩٩١هـ / ١٥٠٧-١٥٨٣م) ، أنظر أحمد بابا : نبيل الابتهاج ، ص ٣٥٣ ، ٣٥٤ ، محمد مخلوف : شجرة النور ص ٤١٤ .

(٦) تعطل القضاء في تنبكت سنة وخمسة أشهر وقام الإمام محمد بغيب بالصلح بين الناس دفعا لما بدا بين الناس في ذلك الزمان من الخسارة وأكل بعضهم أموال بعض وضياع أموال الأيتام ، وكان إذا صلى

أبى حفص عمر بن الفقيه محمد المتوفى عام (١٠٠٦هـ / ١٥٩٧م) ليتولى هذه الخطة أكثر من مرة ولم يقبلها الفقيه حتى أرسل له أسكيا رسولا من عنده ليبلغه أنه اذا لم يقبلها سيوليها لجاهل ، وكل ما يحكم به هذا الجاهل يسأل عنه أمام الله تعالى، وعندما وصل هذا الرسول إلى الفقيه عمر وأبلغه رسالة الأسكيا قبل خطة القضاء وهو يبكى وكان هذا في عام (٩٩٣هـ / ١٥٨٥م)<sup>(١)</sup>.

وهناك واقعه أخري تدل علي تهرب فقهاء المالكية من ممارسة خطة القضاء ، وعلي حرص وحب الاسكيا محمد للفقهاء ومتابعته لهم لكل ما يتعرضون إليه من مضايقات ومن ذلك ، عندما قام الفقيه القاضي محمود بن عمر بقضاء فريضة الحج وترك القضاء من بعده للقاضي عبد الرحمن ، ثم عاد ومكث في تنبكت سنتين والقاضي عبد الرحمن يقضى ومارد القضاء للقاضي محمود الذي استنابه ، والقاضي محمود ساكت ولم يتعرض له إلى أن وقعت نازلة في مجلس القاضي عبد الرحمن وحكم فيها بما حكم به ، وسمع بذلك الفقيه القاضي محمود وأرسل إليه ينقض هذا الحكم لمخالفته بنص الكتاب والسنة والإجماع فأبى إلا إنفاذه، وسكت الشيخ فبلغ الخبر أسكيا محمد الذي أرسل رسله ليردوا الحكم للقاضي محمود ويعزلوا عبد الرحمن ، وجاء الرسول وأجتمع علماء تنبكت و فقهاؤها في جامع سيدي يحيى ونادوا القاضي بأمر أسكيا فحضر وقال له الرسل : أسكيا يأمرك بأن تسلم الأمر للقاضي محمود لأنك نائبه ، وإذا حضر النائب فالنائب معزول ، ثم عزلوه وأتوا القاضي محمود بأمر أسكيا بأن يرجع إلى مكانه ويتولى القضاء فأبى وامتنع وألحوا

الصبح يجلس بباب مسجد سيدي يحيى ويحضر بعض طلبته ويقول رحمه الله من له حق على من امتنع به فليات فجعل الناس يأتونه بدعواهم وليحكم بينهم فيأمر وينهى ويسجن ويضرب من يستحق الضرب ، أنظر محمود كعت: الفتاش ، ص ١٢٤ ، ١٢٥.

(١) محمود كعت : مصدر سابق ، ص ١٢٤ ، السعدي : مصدر سابق ، ص ١١٨ ، البرتلي : فتح الشكور ، ص ١٧٨ . عندما سمع بأمر الاسكيا بتولية القضاء خرج هاربا إلى بعض القرى من بلاد أترم ، ثم رجع كامنا حتى ظفروا به.

عليه ، فلما سمع أسكيا برفضه و امتناعه، أرسل إليه كبراء قومه فلم يقبل إلا بعد ما غلبوه بالحجج<sup>(١)</sup> .

ويبين أيضا تهرب الفقهاء من خطة القضاء والإفتاء ما حدث مع الفقيه محمود بغيغ<sup>(٢)</sup> المتوفى عام (١٠٠٢هـ/ ١٥٩٢م) والذي أرسل أسكيا إسحاق أحد أعيانه من الجيش ليقدمه قاضيا أحب ذلك أم كره ، فأتى رسول الأسكيا وجمع أهل جني وفقهاءها وسلطانها ، كما أحضروا الفقيه محمود بغيغ وهو لا يعلم لماذا حضر؟ فأخذوه وأمسكوا به وألبسوه قميص أسكيا الذي أرسله إليه في عنقه في عام (٩٥٩هـ/ ١٥٥١م) ، وعندما عرف الفقيه محمود أمر توليه خطة القضاء ظل يصرخ ويكفي بكاء الصبي وقدموه جبرا وقرأوا عليه كتاب أسكيا، وبأمره أعطوه فرسا . وحملوه إلى داره ، فلما دخل بيته استقبلته زوجته وقالت له لم رضيت القضاء فقال : لم أرض بذلك ! وإنما أجبروني به وكلفوني ، فقالت : " لو اخترت الموت عليه لكان أحسن منه "<sup>(٣)</sup> .

ومن ذلك أيضا عندما طلب أسكيا داوود من الفقيه أحمد بن محمد بن سعيد سبط القاضي محمود بن عمر المتوفى عام (٩٧٦هـ/ ١٥٦٨م) أن يقنع كل من الفقيه محمد بغيغ وأخيه الفقيه أحمد بغيغ المتوفى عام (٩٧٨هـ/ ١٥٧٠م) أن يتولى أحدهما قضاء مدينة جني وتوابعها ، وطلب أسكيا داوود من العلماء والأعيان في مدينتي جاو و تنبكت محاولة إقناعهما، ولكنها أصرا على رفض تولي خطة القضاء . فلما زاد الإلحاح عليهما وتشفع فيهما الناس فأبى أسكيا وتشدد في ذلك حتى هربا ولجأ إلى

(١) محمود كعت : مصدر سابق ، ص ٧٥ ، ص ٧٦ ، السعدي : مصدر سابق ، ص ٧٦ .

(٢) هو محمد بن محمود بن أبي بكر الونكري التنبكتي عرف "ببغبيغ" (٩٣٠-١٠٠٢هـ/ ١٥٢٣-١٥٩٣م) أنظر أحمد بابا : نيل الابتهاج ، ص ٦٠٠ ، ٦٠١ ، ٦٠٢ . كان الفقيه محمود بغيغ يفصل (يفتي) بين المولدين والمسافرين ، السعدي : تاريخ السودان ، ص ١١٨ ، البرتلي : فتح الشكور ص ١١٣ .

(٣) محمود كعت : الفتاش ص ١١٥ ، البرتلي : فتح الشكور ، ص ٢٨ .

المسجد الجامع وأقاما فيه شهورا وأثناء ذلك كان يأتيهما رسول أسكيا يوما فلما رأى إصرارهما على الرفض سكت عنهما<sup>(١)</sup>.

وتكرر رفض الفقهاء لخطة القضاء ، ففي عهد أسكيا إسحاق عندما عرض هذا السلطان خطة القضاء على الفقيه عثمان درم ليتولى هذا الأمر على بلده تندرم ، ولكن الفقيه عثمان رفض هذا المنصب ولم يقبله إلا قهرا بعد مناقشات ومد وجزر<sup>(٢)</sup> . وبعد موافقة الفقيه على تولى خطة القضاء، يتم تنصيبه عقب صلاة من الصلوات الخمس في المسجد الجامع على مرأى من الناس بحضور الملك في ذلك اليوم المشهود ، ويأتي الفقيه الذي يريد الملك تنصيبه لخطة القضاء فيقلده هذا المنصب<sup>(٣)</sup> .

ويحلف الفقيه أمام الملك بالله أو باسم من أسمائه الحسنی أنه سيلتزم في أحكامه بما جاء في كتاب الله وسنة رسوله الكريم ﷺ وخلفائه من بعده ، واجتهادات أئمة العلم من بعده ، وأنه لا يخاف في الله لومه لائم<sup>(٤)</sup> ثم يقول الفقيه : "القوى عندي ضعيف حتى يؤخذ الحق منه ، وكذلك الضعيف عندي قوى حتى يستوفى له حقه " وعقب الحلف يقلده الملك خطة القضاء<sup>(٥)</sup> .

وكان يعاون القاضي في أداء عمله العديد من فقهاء المالكية منهم من كان يتولى وظيفة متولي الشرع ، وهي حصر التركة بعد موت أي شخص له أملاك، وكذلك كان هناك وظيفة شهود القاضي وهم من الفقهاء الذين يوقعون مع القاضي على الوثائق كوثائق الصلح الذي يعقد بين الجماعات السياسية المتخاصمة . كما كان

(١) المصدر السابق ، ص ٩٠ .

(٢) المصدر السابق والصفحة .

(٣) ما حدث مع الفقيه محمود بغيغ ، محمود كعت : الفتاوى ، ص ٩٠ .

(٤) أنظر محمود كعت : مصدر سابق ، ص ١٢٤ ، ١٢٥ .

(٥) أبو بكر إسماعيل ميقا : مرجع سابق ، ص ٢٨٠ .

للفقيه القاضي أعوان يرسلهم للسلطة إذا لزم الأمر ويقومون كذلك بإيصال رغباته وأحكامه وفتاويه إلى السلطان إذا لزم الأمر<sup>(١)</sup>.

كما كان هؤلاء القضاة يقومون بمراعاة المساكين وتولى الأحوال المدنية مثل تسجيل المحررين من العبيد ، والنظر في تقسيم التركات والميراث كما كان من مهام القاضي الإشراف على العملية التعليمية ، فكانوا يعينون المدرسين ويساعدون المحتاجين من الطلاب، كما كانوا يقومون بإيواء الطلاب وتوزيع الجراية عليهم وعلى أساتذتهم<sup>(٢)</sup>.

كما كان من مهامهم تعيين إمام الجامع الكبير في تنبكت ، فقد كان تعيين الإمام يتم على يد القاضي<sup>(٣)</sup>. وكان من مهام القاضي القيام ببناء المساجد وتوسعة القائم منها للدراسة والصلاة حسبما يراه من حاجة المنطقة إلى ذلك بمساعدة من الملك والمحسنين. كما فعل الفقيه القاضي العاقب بن محمد أقيت<sup>(٤)</sup> وكان له دور فاعل واضح في هذا المجال<sup>(٥)</sup> فقد قام بتجديد مسجد محمد نض في الفترة ما بين (٩٧٦-٩٧٧هـ/ ١٥٦٧-١٥٦٨م)<sup>(٦)</sup> وكذلك تجديد بناء المسجد الذي في سوق تنبكت عام (٩٨٥هـ/ ١٥٧٧م).

(١) السعدي : مصدر سابق ، ص ٢٧٦.

(٢) سيسكو : مرجع سابق ، ص ٢١٣ ، عبد القادر زيادية : مرجع سابق ص ٧٧ ، ٧٤.

(٣) السعدي : مصدر سابق ، ص ٦٠.

(٤) نفس المصدر : ص ١٧١ ، ١٧٠.

levtzion N,op,cit, ٩٦.

(٥) تذكر المصادر أن الفقيه القاضي العاقب قد أنفق من ماله الخاص في بناء هذه المساجد مالا لا يعرف نهايته إلا الله، أنظر محمود كعت : الفتاش ، ص ١٢٢.

(٦) سوزى أباطة : عائلة أقيت وإسهاماتها الثقافية في تنبكت ، مجلة الدراسات الإفريقية، العدد ٢٦ ، ٢٠٠٤ م ، ص ١٦٨.

. levtzion,N : op,cit,p ١٣٦.

كما قام الفقيه القاضي العاقب في عام (١٥٧٧هـ/١٥٧٧م) بتوسيع الجامع الكبير<sup>(١)</sup> بالطوب اللبن ، وسوى المقابر القديمة وزادها على المساحة الأصلية للجامع القديم بعد عودته من رحلة حجه . وفي عام (١٥٧٨هـ/١٥٧٨م) قام بحركة تجديد وتوسيع في مسجد سنكري<sup>(٢)</sup> على غرار مساحة الكعبة بعد أن أخذ مقاس مساحتها من حيث الطول والعرض ، فأستكمل بناء هذا المسجد على غرار مساحة الكعبة وما زاد وما نقص<sup>(٣)</sup> عليها في شي<sup>(٤)</sup> ، وفي عام (١٥٦٨هـ/١٥٦٨م) ابتداء

(١) يقال إن القاضي العاقب عمود بن محمد هو الذي بناه وأنفق على تجديده ، أنظر عمود كعت : الفتاش ، مصدر سابق ، ص ١٢١ ، ص ١٢٢ ، وكذلك السعدي : تاريخ السودان ، ص ١٠٩ ، ١١٠ ، وهو الآن معدوم ومجهول الموضوع ، أنظر السعادة الأبدية ، ص ٧٤ .

(٢) السعدي : تاريخ السودان ، مصدر سابق ، ص ١٠٩ ، سنكري : كلمة صنغاوية مركبة من : صن ، ويعني المعلم ، وكري : يعني الأبيض ، أي المعلم الأبيض ، ماهر عطية شعبان : جامعة سنكري في تينكتسو ودورها الحضاري والثقافي في القرن السادس عشر ١٤٩٢ / ١٥٩٠ م ، مجلة الدراسات الافريقية ، العدد ٢٤ ، ٢٠٠٢ م ، ص ٩٠ ، ٩١ . انظر : S . Alpha : Les Familles latuna de Sonkore Cherif , p : ٣٠ , revue Sonkore N ٤ , ١٩٩٣ , Etude sur L'islam au Soudan , p : ٦٢ .

(٣) يقول السعدي عن بناء مسجد سنكري : " فقد بنته امرأة واحدة أغلالية ذات مال كثير في أعمال البر ، ولكن لم نجد لبناته تاريخاً ... ثم جدده القاضي العاقب نهاية القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي ، يقول السعدي في إشارة إلى ذلك : " ... وفي يوم الخميس الثاني عشر من المحرم سنة ست وثمانين بعد تسعمائة ، وفي عهد الملك أسكيا داود تم توسيعه وإكمال ما تبقى من بنائه ، وذلك نظرا لازدياد الطلاب الوافدين إليه بكثرة ، واتساع حلقات العلم فيه ، فنال شهرة ضاهت شهرة بعض أبرز الجامعات الكبرى في العالم الإسلامي في تلك الحقبة بل في العالم أجمع .. أنظر السعدي : تاريخ السودان ، مصدر سابق ، ص ١١١ .

Ali Ould Sidi : Monuments and Traditional Know-how: the Example of Mosques in Timbuktu, ISSN ١٣٥٠-٠٧٧٥, No. ٢٢٩-٢٣٠ (Vol. ٥٨, No. ١-٢, ٢٠٠٦) UNESCO ٢٠٠٦ ٤٩ Published by Blackwell Publishing, ٩٦٠٠ Garsington Road, Oxford, OX٤ ٢DQ (UK) and ٣٥٠ Main Street, Malden, MA ٠٢١٤٨ (USA), p٥١.

الفقيه القاضي العاقب بتجديد وتوسيع مسجد سيدي يحيى<sup>(٢)</sup> وانتهى من تلك التجديدات والتوسعات عام (٩٧٧هـ/١٥٦٩م)<sup>(٣)</sup> كما قام ببناء مسجد الهنا (٩٩٤هـ/١٥٨٥م)<sup>(٤)</sup>.

ويعد الفقيه القاضي أبو عبد الله محمد أندغ محمد<sup>(٥)</sup> أشهر من تولى خطة القضاء في دولة صنغى الإسلامية ، والفقيه عبد الله بن الفقيه أحمد برى<sup>(٦)</sup> والذي كان مفتيا

(١) أنه لما حج وأراد الانصراف والقول إلى تنبكت ، أستأذن خدم الكعبة أن يخدم الكعبة ويكيله بقدمه طولا وعرضا فأذنوا له وكالة بالحبل طولا وعرضا ، وجاء بالحبل المكيل ، فلما أراد بناء وتجديد مسجد سنكري أخرج ذلك الحبل وكال تلك العرضة التي أراد بناءها فيه على الأوتاد على جهاتها الأربع وبني عليها وهو على مقدار الكعبة، ما زادت وما نقصت عليها بشي ، أنظر ، محمود كمت : الفتاش ، ص ١٢١ .

(٢) شيد هذا المسجد محمد نض ، من قبيلة أجر الصنهاجية ، وحاكم تنبكت من قبل سلطان الطوارق آنذاك السلطان أكل ، أنظر السعدي ص ٢٢ ، ومن المحتمل تشيده حوالي منتصف القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي ، وعندما جاء إليه صاحبة وحيية الفقيه العالم سيدي يحيى التادلسي المتوفى عام "٨٦٦هـ / ١٤٦١م" أكمل تشييد هذا المسجد، وعينة أماما فيه . Ali Ould Sidi ، ٥٠ op,cit, (٣) السعدي : تاريخ السودان ، ص ١٠٨ ، ١٠٩ .

(٤) الأرواني : السعادة الأبدية ، ص ٩١ .

(٥) هو : الفقيه أبو عبد الله أندغ محمد بن محمد بن عثمان بن محمد بن نوح معدن العلم والصلاح ومنه تنسل كثير من شيوخ العلم والصلاح منهم من جهة الإباء ومنهم من جهة الأمهات ومنهم من جهتيهما معا . فهو عالم جليل قاضى المسلمين ، قال عنه أحمد بابا رحمه الله هو أول من خدم العلم من أجداده فيما أعلم وهو جد جدي لأمة أبو أم جدي (لفظ أندغم حمد من الألفاظ الدالة على التعظيم والتبجيل عند أهل غرب أفريقيا في ذلك الوقت . أنظر السعدي : المصدر السابق ، ص ٢٧ ، الأرواني : مصدر سابق ، ص ٨٢ ، البرتلى : مصدر سابق ، ص ١١٢ . أبو بكر ميكا : تاريخ التعليم في السودان الغربي ص ١٩٤ .

Lamse kABa , L:op,cit,p٢٤٤

(٦) عبد الله ابن الفقيه أحمد برى بن الفقيه أندغم حمد الكبير ، وهو من ذريته من جهة الأب والأم معا لان أمة أخت الفقيه أبى العباس أحمد بن أندغم حمد، أنظر البرتلى : مصدر سابق ، ص ١٥٨ . الأرواني : مصدر سابق ، ص ٨٦ .

شريعياً في زمانه نابغاً في علوم القرآن وتوثيق الأسانيد.. أما شيخ الإسلام أبو البركات الفقيه القاضي محمود بن عمر<sup>(١)</sup> والذي تولى القضاء عام (٩٠٤هـ/ ١٤٩٨م) فشدّد في الأمور وسدّد وتوخى الحق في الأحكام وكان ذا ثبات عظيم في الأمور وهدى تام وسكون ووقار وكذلك اشتهر علمه وصلاحه في البلاد ، وظهرت ديانته وورعه وصلاحه وعدله في القضاء ونزاهته وكان لا يخاف في الله لومة لائم مع صلاح ودين ولذلك طار صيته في الأقطار شرقاً وغرباً<sup>(٢)</sup>.

وتولى خطة القضاء بعد وفاة القاضي محمود ابنه محمد<sup>(٣)</sup> الذي تولى القضاء عام (٩٥٥هـ/ ١٥٤٨م). وقد ساعده على النبوغ في خطة القضاء وغيرها أنه كان ذا فهم ثاقب وذهن صافٍ ، كما كان عالماً جليلاً ولم يكن له نظير في عمره في الفهم والدهاء ورجاحة العقل<sup>(٤)</sup>.

وكان أخوه القاضي العاقب بن محمود<sup>(٥)</sup> والذي كان بسدداً في أحكامه ، صلباً في الحق ثابتاً فيه لا تأخذه في الله لومة لائم قوى القلب في الأمور العظام التي يتوقف فيها غيره ، إذا رأى ما يكره عزل نفسه عن القضاء وسد بابيه ، ثم يلاطفونه حتى يرجع ، وقع له هذا مراراً.

(١) هو: "القاضي محمود بن عمر بن محمد أقيت بن يحيى التنبكتي (٨٦٨-٩٥٥هـ/ ١٤٦٣-١٥٤٨م) أنظر أحمد بابا: نيل الابتهاج ص ٣٥٣، والسعدي: تاريخ السودان ، ص ٣٨، الاروانى : مصدر سابق ، ص ٩٠.

(٢) محمد مخلوف: شجرة النور الزكية ، ص ٤٠٢.

(٣) هو القاضي: "محمد بن محمود بن عمر بن محمد أقيت ٩٠٩-٩٧٣هـ/ ١٥٠٧-١٥٨٣م، وهو أحد الإخوة الثلاثة أولاد الفقيه محمود بن عمر، أنظر أحمد بابا: نيل الابتهاج ، ص ٥٩٧. الاروانى : السعادة الأبدية ص ٩١.

(٤) أحمد بابا: مصدر سابق ، ص ٥٧٩.

(٥) المصدر السابق ، ص ٣٥٣، ٣٥٤، الاروانى : مصدر سابق ، ص ٩١، محمد مخلوف: شجرة النور ص ٤١٤. وقد سبق الحديث عنه في إصلاحات المساجد.

كما تولى أخوه القاضي عمر بن محمود القضاء في عام (٩٩٣ هـ / ١٥٨٥ م). بعد رفضه لذلك المنصب ، وقد برع في علم الحديث والسير والتاريخ وأيام الناس ، وقد بلغ الغاية القصوى في الفقه حتى قال عنه بعض من معاصريه من الشيوخ إنه لو كان موجوداً في زمن ابن عبد السلام بتونس لاستحق أن يكون مفتياً فيها<sup>(١)</sup>. كما تولى ابن هذا القاضي الفقيه عبد الرحمن بن عمر خطة الإفتاء ، وكان يقوم بعمله على أكمل وجه<sup>(٢)</sup>.

وقد تولى خطة الإفتاء من فقهاء المالكية محمد بن أحمد بن محمد التازختي الذي كان مفتياً محصلاً جيد الحفظ ومتمتعاً بحسن الفهم<sup>(٣)</sup> ، وكذلك السيد أبو العباس أحمد بن محمد بن عثمان الذي كان فقيهاً مفتياً<sup>(٤)</sup>.

كما تولى منصب القضاء في مدينة جنى فقهاء المالكية ، منهم الفقيه محمد سانوا الونكري<sup>(٥)</sup> الذي قدم إلى جنى في أواخر القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي<sup>(٦)</sup> ولعلمه وصلاحه تعدت شهرته مدينة جنى حتى وصلت إلى مدينة تنبكت مركز الثقافة الإسلامية. فعندما زار القاضي الفقيه محمود بن عمر مدينة تنبكت في مطلع القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي التقى بهذا العالم الفقيه محمد سانوا ، فأعجب بعلمه وصلاحه ، فأثنى عليه للأسكيا الحاج محمد فولاه

(١) هو القاضي : " عمر بن محمود بن عمر بن محمد أقيت المتوفى عام (١٠٠٣ هـ - ١٥٩٤ م) وقد سبق الحديث عنه في تهريب الفقهاء من خطة القضاء ، أنظر ، البرتل ، فتح الشكور ، ص ١٧٨ .

(٢) السعدي : تاريخ السودان ، ص ٥٧ ، الارواني : مصدر سابق ، ص ٩٢ .

(٣) البرتل ، فتح الشكور ، ص ٦٣ .

(٤) الارواني : مصدر سابق ، ص ٩٣ .

(٥) هو : " الفقيه فودي محمد سانوا الونكري " وكان له أثار جليلة في ازدهار الحياة العلمية في مدينة جنى ، انظر ، السعدي : تاريخ السودان ، ص ٦ .

(٦) المصدر السابق : ص ٧ .

الأخير قضاء مدينة جني عام (٩٠٤هـ / ١٤٩٨م بعد عودته من الحج<sup>(١)</sup> ، وكان الفقيه القاضي محمد سانوا أول قاضي شرعي يفصل بين الناس في مدينة جني ، بعد ان كان الناس يترافعون بخصوماتهم وقضاياهم إلى خطيب الجامع الكبير فيسعى بينهم بالصلح<sup>(٢)</sup> .

كما تولى الفقيه القاضي الصالح محمود بغيغ في عام (٩٥٩هـ / ١٥٥١م) قضاء مدينة جني ، بعد وفاة القاضي عباس كب ، وكان هذا في عهد الأسكيا إسحاق بن الأسكيا الحاج محمد الكبير<sup>(٣)</sup> .

وكان القضاء في جني يمثل الازدهار والأمن والاستقرار وانتشار الإسلام والثقافة الإسلامية ، وقد ذكر السعدي أشهر فقهاء المالكية الذين تولوا القضاء في مدينة جني في عهد دولة صنغى الإسلامية وفي مقدمتهم محمد سانوا الأول و القاضي محمد فودي ، القاضي كنجي و القاضي تتاع و القاضي سنقم و القاضي عباس كب وقال عنه إنه من أهل جني وكان فقيها عالما جليلا فاضلا خيرا له قدم راسخة في السخاء و القاضي محمود بغيغ ، القاضي عمر ترف و القاضي تلماكلس ، و القاضي أحمد ترف بن القاضي عمر ترف ، و القاضي مؤدب بكر تورى ، وقال عنه إنه كلوي أصلاً من أولاد سلاطينها فزهد في السلطنة، و جليلا ونكرى الأصل تولى القضاء بعد وفاة القاضي مؤدب بكر تورى وهو آخر قضاة دولة السودانين<sup>(٤)</sup> .

(١) محمود كعت : مصدر سابق ، ص ٥٩ ، السعدي : مصدر سابق ، ص ١٨ .

(٢) السعدي : مصدر سابق ، ص ١٨ .

(٣) الاسكيا إسحاق : "هو إسحاق بن الأسكيا الحاج محمد الكبير، وقد تولى العرش في (٩٤٦-٩٥٦هـ / ١٥٣٩-١٥٤٩م) انظر، السعدي : مصدر سابق ، ص ٩٥ ، ٩٦ .

(٤) ولكن مع الاسف لم تذكر لنا كتب المصادر الكثير عن هؤلاء القضاة سوى أسمائهم فقط دون ذكر تواريخ أو شيء بالتفصيل عن حياتهم ، انظر السعدي : مصدر سابق ، ص ١٩ ، ٢٠ .

## ج - الخطابة والإمامة :

ظهرت خطة الخطابة و الإمامة منذ وقت مبكر في السودان الغربي مع بدايات انتشار الإسلام في تلك البلاد<sup>(١)</sup> . وقد حظي منصب الخطيب بالتقدير وعلو الشأن فكان لا يتولاه إلا من أتسع علمه و اطلاعه وكرم أخلاقه واتصف ببلين العريكة وحسن السيرة ، والتقليل من الدنيا مع قلة الطمع فيها . والراجع أن بعض القضاة تولي منصب الخطابة فكان يلقب في أن واحد بلقب القاضي والخطيب<sup>(٢)</sup> .

وكانت وظيفة الخطيب هي أن يخاطب في الناس واعظا ومرشدا أيام الجمع والأعياد ، وكانت مهمته تعتبر من المهام الأساسية في مجتمع السودان الغربي ، وكان الناس يحتكمون عنده ، وكان يقوم بمهمة القاضي في المدن الصغيرة<sup>(٣)</sup> .

(١) ضمت غانه منذ فجر تاريخها وحتى قبل أن تتحول حكومتها للإسلام ، نحو اثني عشر مسجدا ، كما أن القسم الإسلامي من العاصمة كان ممتلئا بالعلماء والفقهاء والأئمة ، أنظر إبراهيم على طرخان : إمبراطورية غانه الإسلامية ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ، ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م ، ص ٨٢ .

(٢) يبدو أن منصب القاضي عرف باسم الخطيب أيضا ، وهذا يتضح عن الكلام عن الأسكيا إسحاق ومسألة ترشيحه محمود بنغيع لمنصب القضاء ما نصه "ثم رجع أسكي إسحاق إلى كاغ ، وأدركه في الطريق نعى الخطيب أحمد ترف خطيب جني قبل وصله لكاغ ، وهو الذي ألفاه إسكي إسحاق هناك خطيبا ... فأمر بتقديم القاضي محمود بنغيع وأرسل أحد أعوانه من جيشه ليقدمه قاضيا أحب أم كره " ، أنظر محمود كمت ، الفتاش : ص ٨٩ ، ويذكر السعدي أن الأسكيا داوود ولي محمد درمي خطيبا سنة ٩٨٦هـ / ١٥٧٨م ، نفس المصدر ص ٩٠ ، وهناك نص صريح لابن المختار يفيد بأن القاضي والخطيب شيئا واحدا وهو " ... وكان أسكيا يوم عزم على الخروج لملاقاة جودار وقتلهم جمع أشياخ كاغ وأعيان جيشه والقاضي الخطيب وكبراء شهوده وسألهم عن الرأي والتدبير أنظر ، نفس المصدر ص ١٤٩ ، ١٥٠ .

(٣) سوزي أباطة : القضاء في صنغاي في عهد الأساكي (٩٩٨-١٠١٨هـ / ١٤٩٣-١٥٩١م) ، مجلة المؤرخ المصري ، دراسات وبحوث في التاريخ والحضارة ، قسم التاريخ كلية الآداب جامعة القاهرة ، العدد ٢٨ ، يناير ٢٠٠٥م ، ص ٣٥٩ .

وقد تولى بعض القضاة منصب الخطابة بالإضافة إلى مهام أخرى ، فقد جمع القاضي أحمد ترف بن القاضي عمر ترف بين مناصبي الخطابة والإمامة بالإضافة إلى القضاء فجمع المراتب الثلاث . ثم خرج للحج واستتاب الخطيب إماماً على الخطابة والإمام يحيى على إمامة الجامع والقاضي مؤدب بكر ترورى على القضاء ، وتوفى هنالك وبقي الثلاثة في أماكنهم<sup>(١)</sup> .

ومن أشهر من تولى خطة الخطابة الفقيه الواعظ أبو زيد محمود بن عمر الذي كان فقيهاً عالماً فجمع بين الخطابة والتدريس وكان معرضاً عن الدنيا بحيث لم يقبلها ولو في لحظة واحدة<sup>(٢)</sup> .

وقد حظي الإمام والخطيب في عصر دولتي مالي وُصنفي برتبة ومكانة اجتماعية عالية فهو إمام المسجد ، كما كانت له ولدائه حرمة تضاهي حرمة دار السلطان نفسه<sup>(٣)</sup> .

أما بالنسبة لخطة الإمامة فقد كان الإمام يتولى باتفاق أعيان المدينة أو البلدة، وتأتى موافقة القاضي على رأس هؤلاء<sup>(٤)</sup> وكان هناك بعض الأئمة يتولون منصب

(١) السعدي : تاريخ السودان ، ص ١٩ .

(٢) في عام (١٥٩٩هـ / ١٥٩٠م) فلما صلى بالناس للظهر وجلس في مدرسته قال بالله بالله لتسمعن في هذا العام ما لم تسمعا بمثله قط ولترون فيه ما لم تروا قط ، أنظر المصدر السابق ، ص ٤٣، ٥١ .

(٣) ابن بطوطة : مصدر سابق ، ص ٦٧١ ، محمود كعت : مصدر سابق ، ص ٩٩ ، ١١٩ .

ESLIAs N . s : social history of Timbuktu, the role of muslim schoars and notables ١٤٠٠-١٩٠٠, p١١٣.

(٤) بعد وفاة الإمام أبو القاسم التواتي ، اتفق أهل الجامع الكبير على الفقيه الإمام أحمد والدنانا سرك ، فرفعوا أمره إلى أبي البركات القاضي الفقيه محمود فكمل عليه وصار أماماً في المنامع ، وبعد شهرين من ولايته جاء ابن أبي القاسم التواتي من توات فمشى أولئك الجماعة إلى الفقيه محمود وقالوا له : نريد أن نجعل لنا أبا الشيخ أماماً فقال لهم بعد تولية الإمام أحمد أن لم تخرجوا عنى أسجنكم جميعاً ، ثم رجع إلى توات ، وبعد سبعة أشهر توفي الإمام أحمد ، واتفقوا على الفقيه الإمام سيد علي الجزولي : وهو

القضاء<sup>(١)</sup>.

وقد رفض بعض فقهاء المالكية تولي منصب الإمامة مثلما ما حدث مع أحمد بن عمر بن محمد أقيت التنبكتي المتوفى عام (٩٤٢هـ / ١٥٣٥م) الذي طلب للإمامة فأبى ورفض<sup>(٢)</sup>، وكذلك ما حدث مع الفقيه أبي بكر بن أحمد بير بن الفقيه محمود الذي كان فاضلا خيرا تقياً صالحاً ولذلك اتفق الصالحون على تقديمه للصلاة بالناس حين مرض الإمام القاضي العاقب فقدموه كرها فصلى بالناس الظهر والعصر والمغرب والعشاء، ثم خرج هارياً من البلد إلى قرية تنبهور فتوفى هناك<sup>(٣)</sup>.

كما رفضها الفقيه عثمان بن الحسن بن الحاج التشيتي بعد أن عرضها عليه القاضي عمر، وقال له لا تخرج من يدي حتى تدلني على من يستحقها، فدلّه على الفقيه صديق بن محمد تعل<sup>(٤)</sup>.

وكانت خطبة الجمعة تلقى باللغة العربية، ثم تعقبها ترجمة باللغة المحلية يليها مساعد الإمام، وشهد ابن بطوطة في السوق ببالي رجلاً بيده رمح يقف ويبين للناس بلسانهم كلام الخطيب<sup>(٥)</sup>.

من الطوارق فولاة الإمامة القاضي محمود، أنظر السعدي: تاريخ السودان، مصدر سابق، ص ٦٠، وكذلك ما حدث بعد وفاة الإمام عثمان بن الحسن التشيتي تنازع أهل الجامع الكبير في الفقيه كداد والفقيه الإمام أحمد بن الإمام صديق، فأختار القاضي العاقب كداد فرتبه إماماً في الجامع الكبير ومكث في الإمامة أحد عشر عاماً، وتوفى ٩٨٩هـ، أنظر البرتلي: فتح الشكور، مصدر سابق، ص ١٠٨، وتولى بعده الإمام أحمد بن الإمام صديق الذي تولى الإمامة بأمر القاضي العاقب ومكث فيها خمس عشرة سنة وتسعة أشهر وثمانية أيام، وتوفى عام (١٠٠٥هـ / ١٥٩٦م)، الارواني: السعادة الأبدية، ص ٩٧.

(١) السعدي: مصدر سابق، ص ٥٦.

(٢) أحد بابا: نيل الابتهاج ص ١٣٧، السعدي: مصدر سابق ص ٢٧، البرتلي: مصدر سابق، ص ٢٧.

(٣) السعدي: مصدر سابق، ص ٣٥.

(٤) البرتلي: فتح الشكور، ص ١٥٤.

وقد تعددت مهام الإمام، فقد جمع الفقيه الإمام القاضي كاتب موسى<sup>(٢)</sup> بين الإمامة والقضاء والتدريس، كما كان كاتباً للسلطان منساً موسى وهو بذلك جمع بينهم وقد مكث في الإمامة أربعين سنة ولم يستتب ولو في صلاة واحدة وهذا من أجل صحة البدن التي رزقه الله تعالى بها<sup>(٣)</sup>، وكان هو آخر من تولى الإمامة من السودان، وخلفه من بعده الفقيه عبد الله البلبل.

وكذلك الإمام العاقب بن العاقب بن محمود تولى بعد موت أخيه القاضي محمد، كلفه الأسكيا داوود بحمل القضاء فجمع بين المرتبتين الإمامة والقضاء إلى أن توفي<sup>(٤)</sup>. وتقلد الإمام الفقيه إبراهيم الزلفي خطة الإمامة وقراءة القرآن الكريم وتجويده، كما عمل في التدريس<sup>(٥)</sup>.

وكان الفقيه الإمام أبو القاسم التواتي المتوفى عام (٩٢٢هـ/١٥١٦م) إماماً ومدرساً في الجامع الكبير، وكان أسكيا الحاج محمد الكبير يصلي خلفه، وكان يطلب

(١) أنظر ابن بطوطة: مصدر سابق، ص ٦٦٩.

(٢) كاتب منساً موسى هو: الإمام سيدي أحمد، كان رحمه الله عالماً عادلاً رحل من أرضه، إلى فاس للتعليم في دولة أهل مل بأمر السلطان الحاج موسى فخلفه في الإمامة الفقيه عبد الله البلبل، أنظر: الارواتي: السعادة الأبدية ص ١٢٣.

(٣) وهو من أئمة المسجد الجامع الكبير في تنبكت المشهورين، وذكر السعدي بأن جميع أئمة هذا الجامع من السودانيين وأن آخر الأئمة من السود الفقيه القاضي كاتب موسى، وذكر أنه مكث في الإمامة أربعين سنة لم يستتب ولم يتخلف ولو في صلاة واحدة لما حباة الله من صحة وعافية بين سبها عندما سئل عن سبب تلك الصحة فقال أحسبها من ثلاثة أشياء، مابت في الهواء ولو ليلة واحدة في الفصول الأربعة كلها، و مابت ليلة واحدة إلا ودهنت جسمي وبعد الفجر استحتمت بالماء المسحون، وما خرجت لصلاة الصبح قط إلا بعد فطور. أنظر السعدي: مصدر سابق، ص ٥٧، أنظر الأرواتي: السعادة الأبدية، ص ١٢٣، البرتلي: فتح الشكور، ص ١٥٨، ١٥٩.

ESLIAs . N . s : Social,p1٠٩.

(٤) السعدي: تاريخ السودان، ص ٤١.

(٥) الارواتي: السعادة الأبدية، ص ١٢٤.

دعائه<sup>(١)</sup> ، وهو الذي ابتداء قراءة الختمة في المصحف بعد صلاة الجمعة مع قراءة حزب واحد من العشرينيات ، وقد حبس أمير المؤمنين أسكيا الحاج محمد تابوتا فيه ستون جزءاً من المصحف في ذلك الجامع لأجل تلك الختمة<sup>(٢)</sup>.

وقد تقلد خطة الإمامة من بعده في المسجد الكبير الفقيه الإمام أحمد والد نانا سرك، والذي لم يمكث في الإمامة طويلاً حيث توفي بعد سبعة أشهر<sup>(٣)</sup> ، وكان قد تفقه على الإمام سيد علي الجزولي وكان إماماً عالماً عاملاً ولاءه القاضي محمود بن عمر، وقد مكث في الإمامة ثمانية عشر عاماً<sup>(٤)</sup> وبعد وفاته عرض القاضي محمود بن عمر الإمامة على نائب الإمام علي الجزولي والذي كان يستنبيه متى عرض له العذر فرفض ، ورشح له الفقيه الإمام صديق محمد تولى المتوفى عام (١٥٦٥هـ/ ١٥٦٥م) فصار إماماً في الجامع الكبير ومكث محمد تولى في الإمامة نحو أربع وعشرين سنة<sup>(٥)</sup>.

كما تولى الإمامة عثمان ابن الحسن ابن الحاج التشتي المتوفى عام (١٥٦٩هـ/ ١٥٦٩م) وقد قبل الإمامة بعد امتناع حتى حلف له أبوه إن لم يقبلها ليسجنته<sup>(٦)</sup> ، وبعد وفاة الإمام عثمان تولى الإمامة بعد نزاع وحسم من القاضي العاقب الإمام محمد بن أبي بكر بن إكداد الفلاني المتوفى عام (١٥٨١هـ/ ١٥٨١م)<sup>(٧)</sup> ، وتولى من بعد وفاة الإمام محمد بن أبي كداد الإمام أحمد بن الإمام صديق الذي تولى

(١) مسعود عمر محمد: تأثير الشمال إفريقيا على الحياة الفكرية، مرجع سابق، ص ١٤١.

(٢) السعدي: مصدر سابق ص ٥٨، ٥٩.

(٣) المصدر السابق، ص ٥٩.

(٤) المصدر السابق: ص ٦١، ٦٠، البرتلي: مصدر سابق، ص ١٩٧، ١٩٦.

ESLIAs . Alpha N . s social History of Timbuktu, , p114.

(٥) السعدي: المصدر السابق، ص ٦٢، البرتلي: مصدر سابق ص ١٥٤، ١٥٥، الأرواني: مصدر

سابق، ص ١٢٤.

(٦) البرتلي: مصدر سابق، ص ١٩٠، ١٩١، الأرواني: مصدر سابق، ص ١٢٤.

(٧) البرتلي: مصدر سابق، ص ١٠٨، الأرواني: مصدر سابق، ص ٩٤.

الإمامة بأمر من القاضي العاقب ومكث فيها خمس عشرة سنة وتسعة أشهر وثمانية أيام ، منها عشر سنين في دولة صنغى . وهو آخر أئمة الجامع الكبير في دولتهم ، وخمس سنين في دولة السلطان الهاشمي أبي العباس المتوفى ( ١٠٠٥ هـ / ١٥٩٦م )<sup>(١)</sup>.

كما تولي الإمامة في مسجد سنكرى الكثير من الفقهاء ، وهم على الترتيب الفقيه محمود بن عمر بن محمد أقيت<sup>(٢)</sup> الذي تولاهما بإذن الفقيه حبيب ، ثم جاء من بعده الإمام أندغ محمد بن الفقيه مختار النحوي ابن خالة الفقيه محمود بن عمر والذي ظل إماماً لمدة عشرين عاماً بعد وفاة أبي القاسم التواتى ، وظل في الإمامة حتى كبرت سنه إذ لم يعد قادراً على إمامة المصلين فتركها لابن خاله الإمام أندغ محمد<sup>(٣)</sup>.

ولما توفى أندغ محمد أمر الفقيه القاضي محمد بن الفقيه محمود فاعتذر متعللاً بسلس البول فكلفه بالبينة عليه فشهد له به الفقيه العاقب بن الفقيه العاقب بن الفقيه محمود فأقاله القاضي محمد وكلف شاهده بها فتولاها<sup>(٤)</sup> الإمام العاقب بن العاقب بن محمود الذي لم يستنب على الصلاة قط إلا في مرض موته حين أمر ابن أخيه الفقيه الزاهد محمد الأمين بن القاضي محمد أن يصلى بالناس فأبى أمه نانا بنت الحاج أحمد ، وبقي المسجد خالياً من صلاة الجماعة أياماً<sup>(٥)</sup>.

(١) مجهول : تذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان ص ١٧٩ ، البرتلى : مصدر سابق ، ص ٣٨ ،

الإرواني : مصدر سابق ، ص ٩٤ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٦٣ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٦٣ ، ٥٩ .

(٤) المصدر السابق ، ص ٣٩ ، البرتلى : مصدر سابق ، ص ١٠٧ ، الإرواني : مصدر سابق ، ص ١٣٢ .

(٥) السعدي : مصدر سابق ، ص ٦٣ ، الإرواني : مصدر سابق ، ص ١٣٢ .

ثم تولى الإمامة في مسجد سنكرى الإمام عبد الرحمن بن الفقيه محمود وكان يتكلف وهو في غاية المرض ، ولم يستتب ولو مرة واحدة في صلاة ، وكان محافظا على الصلوات في وقتها<sup>(١)</sup> إلى أن ألقى القبض عليه محمود بن رزوقون ، فتولى من بعده محمد بن محمد كرى إلى أن توفي فصلى بالناس القاضي سيد أحمد مدة ، ثم تولاها ابنه الفقيه محمد<sup>(٢)</sup>.

ومن أئمة المساجد أئمة مسجد سيدي يحيى في مدينة تنيكت<sup>(٣)</sup> ، وأول الأئمة في هذا المسجد هو الإمام سيدي يحيى التادلسي<sup>(٤)</sup> ، ثم جاء من بعده الإمام محمد بغيغ<sup>(٥)</sup> الذي عرّضت عليه الإمامة في الجامع الكبير فرفض لتعلقه بإمامة مسجد سيدي يحيى<sup>(٦)</sup> . ثم تولى الإمامة الإمام صديق بن محمد تعل ، ومن بعده جاء الإمام محمود بن محمد الونكرى وظل في الإمامة حتى توفي عام (١٠١٨هـ / ١٦٠٩م)<sup>(٧)</sup>.

(١) السعدي : نفس المصدر والصفحة .

(٢) نفس المصدر والصفحة ، الاروانى : مصدر سابق ، ص ١٣٢ .

(٣) عرف هذا المسجد باسم سيدي يحيى لأنه عندما قدم سيدي يحيى إلى تنيكت تلقاه محمد نض التي كانت ولايته على تنيكت بين عامي (٨٣٧-٨٧٦هـ / ١٤٣٣-١٤٧١م) عند قدومه بالترحاب وأكرمه غاية الإكرام وبنى له مسجدا وجعله أماما فيه ، وبلغ الغاية القصوى في العلم والصلاح ، أنظر السعدي : مصدر سابق ، ص ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، الاروانى : مصدر سابق ، ص ٨٢ ، ٨١ .

(٤) هو يحيى بن عبد الرحيم بن عبد الله بن عبد الرحمن الثعلبي بن يحيى البكاء بن أبى الحسن على بن عبد الله بن عبد الجبار بن تميم بن هرم بن حاتم بن قهي بن يوسف بن يوشع بن ورد بن بطال بن أحمد بن عيسى بن محمد بن الحسن بن على بن أبى طالب رضي الله عنه ت ٨٦٦هـ . قدم إلى تنيكت زمن ولاية محمد نض بين عامي (٨٣٧-٨٧٦هـ / م) وتلقاه محمد نض عند قدومه بالترحاب وأكرمه غاية الإكرام وبنى له مسجدا وجعله أماما فيه وعرف هذا المسجد بمسجد سيدي يحيى ، وبلغ الغاية القصوى في العلم والصلاح ، أنظر السعدي : مصدر سابق ، ص ٥٠ .

(٥) هو القاضي : محمد بن القاضي محمود بن أبى بكر بغيغ (٩٣٠-١٠٠٢هـ / ١٥٢٣-١٥٩٣م) ، وكان من الفقهاء متعددي التخصص . أنظر ، السعدي : مصدر السابق ، ص ٤٤ .

(٦) السعدي : مصدر سابق ، ص ٦٣ .

(٧) - البرتلى : مصدر سابق ، ص ١٥٤ .

أما الإمامة في جامع التواتي بمدينة تنبكت<sup>(١)</sup> فقد تولاها الإمام الفقيه محمود بن محمد الزغراني التنبكتي المتوفى عام (١٠١١هـ / ١٦٠٣م)<sup>(٢)</sup>، ثم غلب عليه السعال فلأزم بيته سنين تخلف فيها عن صلاة الجماعة والجمعة لذلك.

وهكذا كان لفقهاء المالكية مكانة ودور كبير بسبب توليهم بعض الخطط الدينية التي جعلتهم على مقربة من الأسر الحاكمة، كما جعلتهم حلقة الوصل بين تلك الأسر والعامّة في دولتي مالي و صنغى الإسلاميتين مما كان سبباً في علو مكانتهم الاجتماعية بين طبقات المجتمع المختلفة وفي بروز دورهم الكبير في هذا المجتمع من خلال شرائحه المختلفة، وهذا ما ستحدث عنه في الفصل القادم من هذا البحث.

(١) جامع التواتي: تقول الرواية الشفهية إن الذي قام ببنائه هو محمد بن علي التواتي، الذي قدم من توات عام (٩٢٠هـ، ١٥١٤م) مع جماعة من أهالي توات، وقد حدثت خلافات دبية بينهم وبين بعض علماء تنبكت، وترتب على ذلك بناء هؤلاء التواتيين، مسجدا لهم يؤدون الصلاة فيه، أنظر الأرواني: صدر سابق، ص ٩٧.

(٢) أنظر البرتلي، مصدر سابق، ص ١١٠، الأرواني: مصدر سابق، ص ٩٧.